ضَع القلَم

http://elrasm-blkalemat.com
FB.com/elrasm.blkalemaat
Instagram.com/elrsmbkalemat
01061419555
http://elrasm-blkalemat.com

عنوان الكتاب:	ضع القلم.
المؤلف:	أيمن رفعت.
الطبعة الأولى:	٢٠٢٤.
المراجعة اللغوية والإخراج الداخلي:	Dr.Right Literary Agency
تصميم الغلاف:	حسن العربي
رقم الإيداع:	2023/30039
الترقيم الدولي:	978-977-87149-8-2

جميع الحقوق محفوظة للناشِر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

ضَع القلَم

رواية

أيمن رفعت

إهداء

إلى كل نفسٍ حائرةٍ أرهقتها التساؤلات وعصفت بها الحياة...

إلى كل نفسٍ تسعى لمعرفة الحقيقة...

إليك هذا الكتاب

مقدمة

لكل شخصٍ قناعاته التي يؤمن بها ومن الصعوبة بمكان أن يغيرها، فهناك من يؤمن بوجود إلهٍ هو خالق هذا الكون وهو الذي يستحق العبادة كونه الخالق الأوحد الذي ليس كمثله شيء، وأنَّ حياتنا الدنيا ماهي إلا مرحلة مؤقتة ننتقل بعدها لحياتنا الحقيقية إمَّا في الجنة أو في النار.

أمَّا الفريق الآخر فهو يرى أن هذه هي حياتنا وأنه ليس بعدها شيء، وأن ما يحركنا ليس روحًا من عند الله وإنما هي بطارية، بمجرد انتهائها فسوف تُغلَق جميع أجهزتنا ومن بعدها ظلام دامس. ليس هناك حسابٌ، ليس هناك جنةٌ أو نارٌ، وبطبيعة الحال ليس هناك إلهٌ.

وقد برزت منذ زمنٍ فكرةُ أنَّ الكون إما أنه أزلي أي ليس له بداية وأنه مستمر إلى مالا نهاية، أو أنه قد نشأ بمحض الصدفة دون أن يكون هناك من أوجده. وليس أدل على ذلك من نظرية التَّطور لداروين التي ذكر فيها "إن جميع الكائنات الحيَّة بما فيها الإنسان جاءت من كائن أحادي الخلية تطور عبر ملايين السنين لينتج عنه جميع الكائنات الحيَّة كما نعرفها اليوم".

على الرغم من أن النظرية أثبتت فشلها وظهر العديد من الكتب لعدد من العلماء لتفنِّد هذه النظرية، منها كتاب "صندوق داروين الأسود" للدكتور مايكل بيهي[1]، إلا أن هناك الكثيرين لا يعتبرونها نظرية تحتمل الصواب والخطأ، إنما هي حقيقةٌ مسلمٌ بها.

ليس لأحد أن يفرض عليك أن تغيِّر قناعاتك، فلك مطلقُ الحرية أن تؤمن بوجود إلهٍ أو لا تؤمن، فبالتأكيد هناك ما دفعك لاتخاذ موقفك هذا.

المهم أن تتحمَّل نتيجة اختيارك، سواء كان بعد الموتِ ظلامٍ دامسٍ أو وجدت غير ذلك.

[1] مايكل بيهي: عالم كيمياء حيوية أمريكى، أستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة ليهاي بولاية بنسلفانيا، وهو من أشد المناصرين لنظرية "التصميم الذكي" التي تؤكد أنه لا يمكن للكون أن يكون وليد المصادفة وأن هناك مصممًا لهذا الكون.

الفصل الأول

جاوزت الساعة الثامنة صباحًا بدقائق قليلة وبدأت الحركة تنشط في أروقة واحدةٍ من أكبر مستشفيات الأورام بمدينة القاهرة. في إحدى الغرف جلست ريم بجوار سرير ابنتها حلا التي أسلمت جفنيها للنوم جرَّاء المخدر الذي يسري في عروقها، نظرت إليها في حنان ثم ما لبثت أن رفعت كفيها للسماء وانسابت الدموع على وجنتيها.

ريم فوزي؛ امرأة في العقد الرابع من عمرها، بيضاء اللون جميلة ممشوقة القوام تعمل مديرة موارد بشرية بإحدى الشركات الكبرى، نشأت في أسرةٍ متوسطة الحال؛ كان أبوها الراحل إمامًا لأحد المساجدِ الصغيرة والتي يُطلق عليها زاوية، وكان أقرب للتشدُّد الديني منه إلى الوسطيَّة مما انعكس عليها وعلى أختيها حيث فرض عليهن ارتداء الحجاب في سنٍ مبكرةٍ نسبيًا.

انفصلت عن زوجها منذ بضعة أشهر بعد زواج دام ثماني سنوات أثمر عن ابنتهما حلا التي احتفلت بعيد ميلادها السابع منذ أيامٍ قليلة بغرفتها بالمستشفى، التي تُقيم فيها منذ أسبوعٍ بعد أن أظهرت الفحوصات الأولية وجود ورمٍ سرطاني بالمخ.

وبينما ريم كذلك إذ تناهى إلى اسماعها صوتُ خطواتٍ مهرولةٍ خارج غرفتها مقرونًا بصياح إحدى الممرضات على زميلتها لاستدعاء الطبيب على وجه السرعة.

نهضت ريم من مقعدها، فتحت بابَ الغرفة ونظرت في حذرٍ خارجها لتجد إحدى الممرضات تهرول في اتجاه الغرفة المجاورة لها، التي تُقيم فيها الطفلة سارة.

كانت ريم قد التقت بسارة ووالديها سابقًا في طرقات المستشفى، عندما كانت تتمم إجراءات الدخول لابنتها حلا، على الرغم من أن حلا ليست من النوع الذي يمكنه تكوين صداقات بسهولة إلا أنه سرعان ما نشأت صداقةٌ بينها وبين سارة، فقد كانت الأخيرة ذات وجهٍ ملائكي وابتسامةٍ تأسر القلوب علاوة على شخصيتها المرحة التي جعلتها تعقد صداقات مع جميع العاملين بالمستشفى على الرغم من صغر سنها الذي لم يتجاوز الثماني سنوات.

حضر الطبيبُ على وجه السرعة، وما إن دلف إلى غرفة سارة حتى طلب من والديها الانتظار بالخارج حتى يتسنَّى له وطاقم التمريض أن يقوموا بعملهم. وقفا خارجًا وبدت الأم منهارةً والدموع تنساب على وجنتيها وهي ترفع كفيها

إلى السماء تدعو بصوت أقرب إلى النحيب، بينما أخذ الأب يتمتم بصوتٍ منخفضٍ فيما يبدو أنه يتلو صلواته.

نظرت إليهما ريم في شفقةٍ، فقد كانت تعرف أن سارة تعاني من اللوكيميا الحادة [٢] وفي مرحلةٍ متأخرةٍ، ولا يمكن للعلاجات المتاحة أن تنقذها، وأن بقاءها على قيد الحياة حتى هذه اللحظة يعدُّ معجزةً في حد ذاته، وهو ما أخبرتها به الممرضة تهاني التي تجاذبت معها أطراف الحديث منذ عدة أيامٍ بعد أن دعتها ريم لاحتساء كوبٍ من الشاي الذي قامت بإعداده.

انقبض قلب ريم فأغلقت باب حجرتها وعادت لتجلس على الفراش إلى جوار ابنتها تتأملها في صمتٍ والدموع تترقرق في مقلتيها، ثم ما لبثت أن لامست وجه حلا براحة يدها قبل أن تلتقط كفها الصغير لتطبع عليه قبلةً حانيةً. لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن تعتدل ريم في جلستها ومن ثَم ترفع كفيها إلى السماء تدعو الله أن يشفي ابنتها فهي كل ما تبقى لها في هذه الدنيا.

***

٢. اللوكيميا الحادة أو سرطان الدم النخاعي الحاد (AML): هو سرطان يصيب الدم ونخاع العظام، وهو النوع الأكثر شيوعًا لدى الأطفال، كما أنه يصيب البالغين الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ عامًا. ويسبب زيادة غير طبيعية في أعداد خلايا الدم البيضاء مما يؤثر على وظيفة النخاع في إنتاج الخلايا بصورة طبيعية بما يعوق عمله في تصنيع خلايا الدم المختلفة، الحمراء منها والبيضاء وكذا الصفائح الدموية، وبالتالي يؤثر على وظيفة الدم نظرًا لقلة خلاياه المختلفة. تزداد الأعراض سوءًا وتتدهور الحالة الصحية للأطفال في فترة زمنية قصيرة.

في أحد مدرجات كلية الإعلام بإحدى الجامعات، الذي اكتظَّ بالطلاب والأساتذة ممن حضروا خصيصًا من أجل ضيفهم الدَّاعية الشاب (يوسف مالك) الذي اعتاد العديد منهم متابعته عبر برنامجه التليفزيوني الأسبوعي "رأيت الله"، كانت الندوة بعنوان "الإسلام دين السلام"، والتي تحدَّث فيها عن السماحة في الدين الإسلامي وكيف انتشر الإسلام عن طريق تطبيق تعاليمه السمحة والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وهو ما جعل الكثيرين يتحولون إليه وذلك عقب الفتوحات الإسلامية.

يوسف مالك؛ شاب في العقد الرابع من العمر متوسط الطول اسمر اللون ذو وجهٍ مستطيلٍ ولحيةٍ خفيفةٍ يعلو رأسه شعر أسود فاحم. هو من ذلك النوع البشوش الذي تشعرُ معه بالراحة النفسية بمجرد أن تتحدث إليه، من أسرة متوسطة الحال توفيت والدته وهو في سن صغيرة نسبيًا ورفض والده الزواج مرةً أخرى؛ ليتفرغ لتربيته هو وأخيه الأصغر كريم، لحق والده بوالدته قبل أن يتخرج يوسف في كلية الإعلام بأشهر قليلة.

بعد تخرجه في كلية الإعلام، اتجه يوسف للدراسات الإسلامية رغبةً منه في توعية الشباب وكان له ما أراد، فقد نجح في أن يكون له برنامجٌ بإحدى القنوات الفضائية، على الرغم من أنه بدأ برنامجه منذ أشهر قليلة إلا أنه نال شهرةً واسعةً

بين الشباب والكبار على حدٍ سواء نظرًا للمحتوى الذي يقدمه بالإضافة إلى أسلوبه البسيط في مخاطبة كافة الطبقات.

ارتفع صوت الدكتور جمال في الميكروفون قائلًا:

– في نهاية الندوة يسرُّ كلية الإعلام أن تتقدم باسمي آيات التقدير والعرفان لابنها البار الدَّاعية الأستاذ (يوسف مالك) على ما قدَّمه لنا من معلومات قيمة علاوة على إهدائه مكتبة الكلية عشر نسخ من كتابه الأخير "ضع القلم"، لكن قبل أن نُفسح المجال للأسئلة، أودُّ أن يُقدم لنا الأستاذ يوسف في عجالة نبذة عن كتابه الأخير وما يعنيه هذا العنوان؟

أمسك يوسف بالميكروفون قائلًا:

– في البداية أودُّ أن أشكر قيادة الكلية على كرمها البالغ باستضافتي وإعطائي الفرصة لمقابلة هذه النُّخبة المتميزة من أساتذتي والحضور الكرام، أما بالنسبة للكتاب، فهو يطرح فكرةً تتلخص في أن جميعنا خاض العديد من الاختبارات في مراحل التعليم المختلفة وبنهاية وقت الاختبار كان المراقب يأمرنا أن نكفَّ عن الكتابة ونضع القلم.

كذلك هو حال الحياة الدنيا، فهي أيضًا اختبار ولكنه ليس كأي اختبار، بل هو الأهم في حياتنا كلها.

اختبار له وقتٌ محدد مع انعدام فرصة الإعادة، وعلى كل منا أن يفعل ما بوسعه ليملأ ورقة الإجابة على الوجه الأكمل قبل أن ينتهي الوقت ويُنَادَى عليك... "ضع القلم".

أومأ الدكتور جمال برأسه وظهرت أمارات الاستحسان على قسمات وجهه وهو يشيد بهذه الفكرة، التي تعدُّ من وجهة نظره أنها أكثر من مجرد فكرةٍ، فهي ببساطة يمكن أن تكون أسلوب حياة. ارتفعت العديد من الأيدي كلٌ يرغب في أن يطرح سؤاله، أشار الدكتور جمال لإحدى الطالبات بأن تلقي سؤالها، نهضت الطالبة من مقعدها وقدَّمت نفسها قائلة:

– سلمى صبحي السنة الثانية بالكلية، ما رأيك أستاذ يوسف في نظريَّة التَّطور[٣]، التي تؤكد أن جميع الكائنات الحية بما فيها الإنسان جاءت من كائن أحادي الخلية تطوَّر عبر ملايين السنين؟

نظر إليها الدكتور جمال غاضبًا وأشار إليها لتجلس قائلًا:

– هذا السؤال خارج موضوع الندوة.

---

[٣] نظرية التَّطور (النشوء والارتقاء) للعالم الإنجليزي تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢): تمَّت صياغة نظرية "التَّطورعن طريق الانتقاء الطبيعي" للمرة الأولى في كِتاب داروين (أصل الأنواع - Origin of Species) والذي كتبه في عام ١٨٥٩، وتنص هذه النظرية على أنَّ الكائنات الحية تتغير مع مرور الزمن نتيجة لِتغيرات في السِّمات الجسمية، أو السلوكيات الوراثية، مما يُتيح للكائن الحي التكيُّف مع بيئته بصورة أفضل ويساعده على البقاء والتكاثر.

مطَّت سلمى شفتيها وبدت ممتعضة وهي تقول:

– ولكن لم يتم التنبيه أن الأسئلة ستكون فقط في إطار الندوة!.

التفت يوسف إلى الدكتور جمال وارتسمت ابتسامةٌ خفيفةٌ على شفتيه وهو يقول:

– لا بأس سوف أجيب على جميع الأسئلة.

ثم ما لبث أن نظر إلى سلمى قائلًا:

– بدايةً، نظرية التَّطور لا تعدو كونها نظرية تحتمل الصواب والخطأ شأنها شأن سائر النظريات العلميَّة التي إذا ما ثبت صحتها أصبحت حقيقةً مسلمًا بها، وعلى حد علمي فإن ذلك لم يحدث مع تلك النظريَّة حتى هذه اللحظة.

وعلى الرغم من أنه أُثبِتَ فشلها وظهرت العديد من الكتب لعدد من العلماء تفند هذه النظرية، منها على سبيل المثال كتاب "صندوق داروين الأسود" للدكتور مايكل بيهي [٤]، إلا أنه لا يزال البعض يعتبرونها حقيقةً مسلمًا بها وهي دليل الملحدين على عدم وجود إله، بالرغم من أن داروين نفسه لم يكن ملحدًا.

[٤] مايكل بيهي: عالم كيمياء حيوية أمريكى، أستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة ليهاي بولاية بنسلفانيا، وهو من أشد المناصرين لنظرية "التصميم الذكي" التي تؤكد أنه لا يمكن للكون أن يكون وليد المصادفة وأن هناك مصمم لهذا الكون

إذ يقول في سيرته الذاتية[٥]: «من الصعب جدًا، بل من المستحيل، أن نتصور أن كونًا هائلًا ككوننا، وبه مخلوق يتمتع بقدراتنا الإنسانية الهائلة قد نشأ في البداية بمحض الصدفة العمياء أو الحاجة، وعندما أبحث حولي عن السبب الأول وراء هذا الوجود، أجده أنه مصمم ذكي، ومن ثمَّ فإني أؤمن بوجود الإله».

ولكن لنفترض جدلًا صحَّة النظرية وأنَّ هناك كائنًا أحادي الخلية بدأ منه كل شيء، السؤال هنا، من خلق هذا الكائن!؟ ولنفترض أيضًا أن الإنسان أصله قرد، إذًا هناك سؤال يطرح نفسه، لماذا وقف تطور القرود؟ لماذا لا نجد قردًا تطوَّر ليصبح أقرب للإنسان؟، كقرد يتكلم مثلًا أو آخر يؤلف مقطوعات موسيقية أو ينظم الشعر، إذا وجدتِ أيًّا من هؤلاء فسأكون من أكبر المؤيدين لهذه النظرية.

ارتسمت ابتسامة متهكِّمة على وجه سلمى وهي تقول في تحدٍ واضح:

– لكن النظرية أثبتت صحتها بالفعل والدليل على ذلك هو أنه في العام ٢٠١٥ تمَّ العثور على بقايا إحدى الزرافات المنقرضة التي عاشت قبل نحو ٧ مليون عامٍ وكانت تتمتَّع بعنقٍ قصير بصورة تختلف تمامًا عن الزرافات الحالية[٦]، وهذا يثبت أن التَّطور موجود بالفعل وليست مجرد نظرية.

---

[٥] The Autobiography of Charles Darwin 1809 - 1882 ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92 - 3

[6] https://www.livescience.com/52903-transitional-giraffe-fossils.html

وبنبرة تغلِّفها الثقة قال يوسف:

– لكن ما ذكرتيه الآن ليس تطورًا بل هو تكيفًا مع البيئة المحيطة لتتمكن من الحصول على غذائها وهو ما يطلق عليه بالإنجليزية (Adaptation)، وهو بالطبع يختلف عن التَّطور (Evolution).

فإن الزرافة بقيت زرافة ولكن ذات عنقٍ أطول، وهناك العديد من الأمثلة على هذا النوع من التكيف، فأكبر مثال على ذلك هو الحوت الذي يُعتقد أنه كان يعيش على اليابسة منذ ملايين السنين قبل أن ينتقل للبحر وهناك العديد من الأدلَّة على ذلك؛ منها أنه بتشريح الحوت وُجدت عظام أصابع تحت زعانفه وأنه يتنفس الأكسجين بالإضافة إلى أنه يلدُ ويرضع صغاره[٧].

كما أنَّ الراحل الدكتور مصطفى محمود[٨] في كتابه "حوار مع صديقي الملحد"، قد ذكر لنا أن نظرية التَّطور تحتوي على عددٍ من الأخطاء؛ أهمها هو ما اكتشفه العلم فيما يعرف باسم الخريطة الكروموسومية أو خريطة الجينات.

---

[7] https://evolution.berkeley.edu/what-are-evograms/the-evolution-of-whales

[٨] مُصطفى محمود (١٩٢١ - ٢٠٠٩): فيلسوف وطبيب وكاتب مصري. ألف ٨٩ كتابًا في مختلف المجالات إضافة إلى الحكايات والمسرحيات وقصص الرحلات. كما قدَّم أكثر من ٤٠٠ حلقة من برنامجه التلفزيوني الشهير العلم والإيمان. أنشأ مسجده في الجيزة الذي يتبع له ثلاثة مراكز طبية تهتم بعلاج ذوي الدخل المحدود، ويضم المسجد الجمعية الفلكية بمسجد محمود، ومتحفًا للجيولوجيا. أُطلقت وكالة ناسا على الكويكب (٢٩٦٧٥٣) اسم مصطفى محمود تكريمًا له.

لقد أثبت العلمُ الحديثُ أن لكل نوعٍ حيواني خريطةً جينيةً خاصة به، ممَّا يستحيل معه أن يخرج نوع من نوع آخر بسبب اختلاف هذه الخريطة الجينية، وهذا ما يهدم تلك النظرية من الأساس، أظن أن هذا كافٍ للإجابة على سؤالك.

ابتسم الدكتور جمال ثم أشار لطالب آخر للسؤال التالي، نهض الطالب واقفًا وعرَّف نفسه باسم حسام قبل أن يقول:

- إن سؤالي هذا هو في صميم موضوع الندوة، التي كان موضوعها "الإسلام دين السلام".

وبلهجة متهكمةٍ أضاف:

- أود أن أعرف كيف يمكن أن يكون دين سلام بينما الجماعات الإسلامية أمثال داعش وأنصار بيت المقدس وغيرها تعيث في الأرض فسادًا وتستبيح الدماء والأعراض، وهو ليس غريبًا عن الإسلام الذي لا يخفى على أحد أنه انتشر بحد السيف بما يعرف بالفتوحات الإسلامية التي أجبرت الناس على اعتناق الإسلام حفاظًا على أرواحهم؟

تعالت صيحات الاستهجان بالمدرج ونهض أحد الطلبة واقفًا، وبنظرات يتطاير الشرر منها وجَّه حديثه إلى حسام قائلًا:

- أي هراء هذا؟ أنت عار على الاسم الذي تحمله.

نهض الدكتور جمال واقفًا وهمَّ بتعنيف الطالب، إلا أن يوسف استوقفه ووجه حديثه للطالب قائلًا:

– أرجو أن يتَّسم النقاش بالاحترام، فإن كان لك وجهة نظرٍ مخالفة أو تعقيب على ما يطرحه زميلك فيجب أن تعرضها دون تجاوز يا... ما اسمك؟

بنبرة حادة قال الطالب: خالد..

ثم أشار إلى حسام وتابع قائلًا:

– زميل الأخ محمد حسام الذي آثر أن يحذف اسم محمد من اسمه.

ولَّدَت لحيته الكثيفة وقسمات وجهه المتجهمَّة علاوة على أسلوبه الحاد انطباعًا لدى يوسف بأن خالد من ذلك الصنف من الناس ممن يعتبرون أنفسهم حماة الإسلام في الأرض.

ارتسمت ابتسامةٌ بسيطة على شفتي يوسف قبل أن يقول في نبرةٍ هادئةٍ، محاولًا أن يمتص غضب خالد:

– حسنًا يا خالد، إن كان هذا دفاعًا عن الإسلام فإنني أختلف معك فيما فعلت، فقد أمرنا الله في كتابه الكريم بالدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة [٩]، أما بالنسبة لما قاله حسام هو ...

قاطعه خالد قائلًا في حدةٍ:

– ما قاله الأخ حسام هو ظلم بينٌ للإسلام وكأنه الديانة الوحيدة التي انتشرت بالسيف.

ظهرت الدهشة على وجه يوسف وسأله: ماذا تقصد؟

صمت خالد ليلتقط أنفاسه قبل أن يقول:

– كانت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية هي الوثنية، ذلك قبل اعتناق الإمبراطور قسطنطين[١٠] الديانة المسيحية لتصبح هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية وصدرت القوانين التي تحارب الوثنية وتمنع أداء شعائرها وتقديم القرابين بل ومصادرة ثروات المعابد، إلا أن فترة قسطنطين لم تشهد قتلًا للوثنيين الذين كانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية في الإمبراطورية.

---

[٩] {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} سورة النحل الآية [١٢٥].

[١٠] قسطنطين الأول (٢٧٢ – ٣٣٧م) واحد من أهم أباطرة الرومان. قام بعدد كبير من الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي أسهمت بشكل كبير في تقوية الإمبراطورية الرومانية. تحول للمسيحية وكان هو الداعي لعقد مجمع نيقيا سنة ٣٢٥م للاتفاق على الملامح الأساسية للعقيدة المسيحية بشكلها الحالي.

لكن تغير هذا الأمر بعد تولى ابنه قسطنطين الثاني الحكم، فقد أمر بقتل كل من يتعبد للأوثان أو يقدمون لها القرابين وكان الموت هو عقوبة ممارسة الشعائر الوثنية مع مصادرة الأملاك حتى لو كانت الشعائر تمارس داخل المنزل.

أما بالنسبة لليهودية فقد كانت معروفة في بدايتها أنها ديانة قبائل محاربة[١١] ونصوص ذلك لا تزال شديدة البروز في العهد القديم من الكتاب المقدس، ولولا أنها ديانة "قومية" أي أنها تقتصر على بني إسرائيل ولا تنتشر بالدعوة، لكانت انتشرت كذلك بالسيف.

وحتى البوذية، فعلى الرغم من أن نصوصها هي الأكثر مسالمة بين الأديان إلا أنهم يعتقدون بأن سواهم ممن لم يبلغ درجة الاستنارة يستحق القتل، فهو أقل قدرًا من النملة.

وللعلم فإن المغول المشهورين بدمويتهم عبر التاريخ هم من ساهموا في نشر البوذية في الصين وتثبيتها في التِبت[١٢].

وبنبرةٍ متهكمةٍ أضاف: فإذا كان ذلك ليس انتشارًا بالسيف، فماذا يُسمى إذًا؟

***

[١١] العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح العشرون.

[12] http://afe.easia.columbia.edu/mongols/main/transcript.pdf

في منزلٍ بسيطٍ بإحدى قرى مركز شبرا الخيمة بمحافظة القليوبيَّة، جلست سعديَّة وفرائصها ترتعد من الخوف، وكيف لا وقد عرفت للتَّو أنه بعد أيام قليلة سيخرج زوجها أو بالأحرى طليقها من السجن، بعد أن قضى به ثلاث سنوات جراء إدانته في إحدى قضايا البلطجة.

سعديَّة عبد النبي؛ سيدةٌ بسيطةٌ في العقد الرابع من العمر، لا تعرف القراءة والكتابة، فقد أخرجها أبوها من الصف الثالث الابتدائي لتساعده في العمل بالحقل، وكذلك كان الحال مع باقي إخوتها الذين لم ينالوا حظَّهم من التعليم باستثناء الأخت الصغرى التي أنهت التعليم الثانوي التجاري.

تزوَّجت في السادسة عشر من عمرها كما هو الحال في قرى مصر قديمًا، فكثيرًا ما كانت الأُسر الفقيرة تلجأ لتزويج بناتها مبكرًا لضيق ذات اليد.

تزوجت سعديَّة من سيد أبو النور العامل بأحد مصانع السيراميك، الذي وفَّر لها منزلًا متواضعًا بُني بالطوب الأحمر، وكان المنزل مكونًا من طابقٍ واحدٍ به غرفتان للنوم وصالة، لوِّن من الداخل بالجير الأزرق، أما الأثاث فقد كان بسيطًا بعض الشيء، فغرفة نومها تحتوي على دولابٍ متوسط الحجم بالإضافة إلى فراشٍ قام سيد بصناعته بنفسه بمعاونة رفاقه، بالرغم من ذلك فقد كانت تلك الغرفة أحسن حالًا من غرفة أطفالها الثلاثة؛ وليد وآية وشروق، التي كانت لا تحتوي إلا على مرتبتين من القطن فقط.

منذ ٧ سنوات فقَدَ زوجها عمله وتمَّ رفده لسوء سلوكه لتعاطيه المواد المخدرة أثناء ورديته الليلية بالمصنع بعدما أبلغ عنه زملاؤه نتيجة مشاجراته الدائمة معهم، فقد كان ضخم الجثة ذو صوتٍ جهوريٍ وأسلوبٍ فظٍ مما جعل الجميع يتحاشى التعامل معه ويبيِّتون النيَّة للتخلص منه في أقرب فرصةٍ.

وعلى الرغم من فقده لمصدر دخل الأسرة الوحيد وبدلًا من أن يبحث عن عملٍ آخر، آثر سيد الجلوس في البيت دون عمل ولم يكتفِ بذلك بل تجرَّد من أي نخوة ولم يراعِ حُرمة بيته، واستضاف أصدقاءه لتعاطي المخدرات، ممَّا دعا سعديَّة أن تغلق باب غرفتها عليها وعلى أبنائها ليالٍ طوال تدعو الله أن يحفظها وأطفالها.

اضطرت سعديَّة للبحث عن عمل لتعول أطفالها بعدما لم تجد لديها من الطعام ما تسدُّ به رمقهم، وكانت المشكلة أنها لم تجد عملًا يقبلها وهي لا تملك الحد الأدنى من المؤهلات – القراءة والكتابة – فقبلت بالعمل في تنظيف البيوت.

كانت تخرج في الخامسة صباحًا وتعود قرب الساعة الثامنة مساءً ومعها بعض الطعام الذي يجود به أصحاب البيوت التي تعمل في خدمتهم، علاوة على بعض الجنيهات التي تكفي بالكاد لسد احتياجات أسرتها، ولا تنسى بالطبع علبة السجائر وكذا باكو المعسل لزوجها سيد حتى لا تتعرض للإهانة وربما الضرب إذا عادت دونهما.

كثيرًا ما لجأت سعديَّة لإخوتها ترجوهم أن يتصدُّوا لزوجها ليكفَّ عن إهانتها والتعدي عليها، إلا إنها لم تجد منهم أي مساندة وخاصة بعد وفاة والدهم، فقد كانوا جميعهم يخشونه ويتحاشون الصدام معه ويطلبون منها أن تحل مشاكلها مع زوجها بعيدًا عنهم.

طلبت من زوجها الطلاق أكثر من مرة، إلا أنه في كل مرة كان يعتدي عليها بالضرب المبرح ولا ينقذها إلا بكاء أطفالها وهم يستعطفون أباهم أن يتوقف. كان سيد يتعجب حينها، كيف تجرؤ سعديَّة على طلب الطلاق؟ أين ستذهب بعد أن خرَّب علاقتها مع عائلتها ولا يوجد مكان آخر تذهب إليه؟!

بالطبع هو لا يكترث بها، ولكن ما كان يؤرقه هو ماذا سيفعل إذا ما طلقها؟ كيف سيوفر المال اللازم لنفقاته المختلفة؛ من طعام وسجائر وبالطبع جلسات المزاج؟ علاوة على احتياجاته الزوجية كلما كان يعن له ذلك.

بدخول سيد السجن بدأت سعديَّة في التقاط أنفاسها، وللمرة الأولى منذ فترةٍ طويلةٍ تشعر بالأمان في بيتها ووسط أولادها ولمَ لا، فبغياب زوجها عن المنزل انقطعت جلسات المزاج كما كان يطلق عليها سيد ورفاقه وبدأت علاقاتها بجيرانها في التحسن.

قامت بآخر زيارة لزوجها بالسجن منذ عام ونصف عندما ثار عليها وسبَّها بأقذع الألفاظ لرفضها تهريب الأقراص المخدرة له داخل الطعام، لم يكتفِ بإهانتها فحسب بل رمى عليها يمين الطلاق.

ظنَّت سعديَّة أو هكذا خُيِلَ إليها، أن الدنيا قد ابتسمت لها أخيرًا بعد طلاقها، وتوقفت عن زيارة طليقها في السجن طوال العام والنصف المنصرم، بل وقامت بالانتقال إلى شقة صغيرة بالإيجار في نفس القرية وساعدها فاعلو الخير في توفير بعض قطع الأثاث والأجهزة المستعملة لتجهيز الشقة.

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد فوجئت بأحد الأشخاص الذي قدَّم نفسه لها بأن اسمه صلاح، وأن إحدى جاراتها بجوار سكنها القديم قد دلَّته على عنوانها هذا، بعدما أخبرها أنه يحمل رسالة لها من زوجها، مفادها أن سيد سيكون في بيته بعد بضعة أيام.

استنكرت سعديَّة ما قاله صلاح وأوضحت له بأنه ليس هناك علاقة بينها وسيد فقد قام بتطليقها منذ عام ونصف، ولكنها فوجئت برد صلاح بأنه لم يكن هناك أي طلاق، سيد ينكر أنه قد فعل ذلك، حتى وإن حدث فإن سيد بوجوده داخل السجن فهو فاقد للأهلية أي لا يُعتد بما فعله أمام القانون.

***

بدا خالد مزهوًا بنفسه، فقد لقَّن هذا الحسام درسًا لن ينساه، أو هكذا خيل إليه. نظر يوسف إلى خالد قائلًا:

– من الواضح يا خالد أنك قارئٌ جيد وقد أعددت نفسك جيدًا لهذا النوع من الأسئلة.

أومأ خالد برأسه وهو يقول:

– نعم، لقد قرأت الكثير حول هذا الموضوع بالذات ليمكنني الرَّد على أمثال...

قاطعه يوسف قائلًا:

– ولكنك لم تفعل إلا أنك قد زدت الطين بلَّة، أو كما يقولون "جه يكحلها عماها".

تعالت الضحكات داخل المدرج وبدأ حسام يلتقط أنفاسه في حين سأل خالد في توتر: وكيف هذا؟

ابتسم يوسف كعادته وهو يقول:

– إنك لم تنفِ التهمة عن الإسلام بل قمت بتأكيدها معللًا ذلك بأن باقي الديانات فعلت المثل، ولكن في الحقيقة إن الإسلام بريء من هذه التهمة المنسوبة إليه، فالكلام عن إجبار الناس على الدخول في الإسلام عارٍ تمامًا من الصحة،

والدليل على ذلك إنه وبعد مرور ١٠٠ عام على ظهور الإسلام وامتداد الدولة الإسلامية من المغرب إلى بلاد فارس كانت نسبة المسلمين فيها لا تتجاوز ٢٠٪، بينما ظل ٨٠٪ من السكان على دياناتهم.

كانت مصر أسرع البلاد دخولًا في الإسلام فقد اعتنق الدين الإسلامي أكثر من نصف سكانها سواءً من النصارى أو الوثنيين، وفي نهاية خلافة معاوية بن أبي سفيان أي بعد نحو نصف قرنٍ من الفتح الإسلامي، بقي قرابة نصف المصريين على نصرانيتهم وهم الأرثوذكس حيث أتاح لهم الفتح الإسلامي حرية دينية لم ينعموا بها من قبل في ظلِّ الاضطهاد الروماني.

وفي نهاية عهد هارون الرشيد، أي بعد مرور قرابة القرنين من الزمان على الفتح الإسلامي، كان تعداد النصارى واليهود من سكان مصر يُقدر بالربع، أي أن قطاعات من النصارى الأرثوذكس قد اعتنقوا الدين الإسلامي بعد التعرف عليه[١٣].

تلك هي حقائق التحولات الدينية التي جعلت أغلبية الشعب المصري تعتنق الإسلام منذ اللحظات الأولى للفتح الإسلامي وليس أدلّ على ذلك من شهادة العلامة السير توماس أرنولد: "إنه من الحق أن نقول إن غير المسلمين قد نعموا،

[١٣] المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي – فيليب فارج ويوسف كرباج

بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلًا في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة"[١٤].

وكذلك شهادة المستشرق الألماني آدم متز: "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام"[١٥].

وقبلهما كانت شهادة الأسقف الأرثوذكسي يوحنا النقيوسي[١٦]، شاهد العيان على الفتح الإسلامي، الذي قال: "لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوةٍ بالغةٍ، واتهمونا دون شفقةٍ، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء اسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحريَّة، ولم يأخذوا شيئًا من مال الكنائس، وحافظوا عليها طوال الأيام، وعشنا في سلام"[١٧].

أما بالنسبة لمن يقول أن المصريين تحولوا للإسلام هربًا من دفع الجزية فهو قولٌ لا يُعقل، حيث أن الجزية هي مساهمة من الفرد تجاه مجتمعه لمساعدة الدولة في الوفاء بالتزاماتها كما أنها تعد مبلغًا زهيدًا مقارنة بما كان يدفعه المصريون من ضرائب للرومان وبما يدفعه المسلم من زكاةٍ واجبة.

---

[١٤] الدعوة إلى الإسلام – توماس أرنولد

[١٥] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، الجزء الأول – آدم متز.

[١٦] يوحنا النقيوسي: كان أسقفًا من القرن السابع الميلادي لأبرشية مدينة نقيوس في جنوب شرق الدلتا، ويعتبر التاريخ الذي كتبه من المصادر الهامة عن أحداث دخول العرب لمصر حيث أنه عاش قريبا من تلك الفترة.

[١٧] تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي. تاريخ مصر في العصر البيزنطي – د. صبري أبو الخير سليم

صمت يوسف قليلًا وتنقلت نظراته ما بين خالد وحسام قبل أن يقول:

– هذه شهادات مختلفة في حق الإسلام، وأبرزها شهادة الأسقف يوحنا النقيوسي الذي عاصر الفتح الإسلامي آنذاك.

وليس هذا فقط، فمن الأسباب المعروفة لفتح مصر هو عدم قدرة الدعاة على الدخول لمصر لنشر الإسلام في ظل وجود الحكم البيزنطي الذي كان يضطهد اليعاقبة[١٨] وهم السواد الأعظم من مسيحيي مصر في ذلك الوقت، فبالرغم من أن الرومان كانوا يدينون بالديانة المسيحية إلا أن اختلافهم في المذهب عن أهل مصر جعلهم يعذبون قساوستهم ورهبانهم بالإضافة إلى فرض الضرائب الباهظة عليهم.

وجَّه يوسف حديثه إلى حسام قائلًا: أعتقد أن هذا يجيب على سؤالك.

ضجَّت القاعة بالتصفيق قبل أن ترتسم ابتسامة ساخرة على وجه حسام وهو يقول متهكمًا:

[١٨] يعاقبه أو يعقوبيه: ترجع الكنيسة اليعقوبية بجذورها إلى نشأة المسيحية في القرن الأول الميلادي. وينتشر رعاياها في سورية وفلسطين ولبنان ومصر والعراق وبلاد الهند. وقد ظهرت لفظة "اليعقوبية أو اليعاقبة" في القرن الخامس الميلادي نسبة الى الأسقف يعقوب البرادعى أحد الاسقفين الذين أرسلتهما الامبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور جستنيان إلى الملك الغساني الحارث بن جبلة لتعليم قومه وتنصيره

– بما أن الفتح الإسلامي جاء ليخلص المصريين من الاضطهاد الروماني، إذًا لا يمكننا إلقاء اللوم على أمريكا وحلف الناتو لغزوهم العراق وليبيا لتخليص شعوبهم من اضطهاد ودكتاتورية حكامهم.

ساد الصمت القاعة وتعلَّقت أنظار الجميع بيوسف الذي أطال النظر إلى حسام محاولًا سبر أغباره، وتنحنح الدكتور جمال قبل أن يقول موجهًا حديثه إلى حسام:

– لقد خرجت بأسئلتك هذه عن الإطار المحدد للندوة، وها أنت تُقحم السياسة في غير موضعها.

أطرق يوسف برأسه مفكرًا فقد بات واضحًا أن حسام يحسب أنه في معركة لابدَّ له أن ينتصر فيها، وبالنسبة ليوسف فإن الموضوع لا يعدو كونه إجابة على بعض التساؤلات، لذا رأى أن يقطع الطريق على حسام لطرح المزيد من الأسئلة.

رفع رأسه ونظر إلى حسام قبل أن يتنهد قائلًا:

– سأجيب عن سؤالك ولكن سيكون هذا السؤال الأخير لك، حتى نفسح المجال لسؤالٍ أخيرٍ من أحد زملائك.

إن العراق وليبيا لم تكونا محتلتين بل كانتا تحت حكم رؤساء من الشعب نفسه، وصل هؤلاء الرؤساء لسدَّة الحكم عن طريق الانتخاب، وكانت شعوبهما تعيش

في رخاءٍ والدليل على ذلك وجود العديد من العاملين بمجالات عدة ومن جنسيات مختلفة ومنهم مصريون بالطبع، يعملون بتلك البلدان قبل أن تؤول الأمور إلى ما آلت إليه.

كان الدافع للغزو هو الاستيلاء على ثرواتها وليس كما ادَّعوا أنه بدافع الإنسانية وتخليص الشعوب من القهر والظلم، وبما أن العبرة بالخواتيم، ما هو حال العراق وليبيا بعد الغزو أو بالأحرى الجريمة التي ارتُكبت في حقهما؟ هل باتوا ينعمون بالاستقرار والديمقراطية المزعومة؟ بالطبع لا، فلم تكن هذه الغاية منذ البداية.

همَّ حسام بالتعليق إلا أن يوسف استوقفه بإشارة من يده قائلًا:

- يكفي هذا، دع الفرصة لزملائك.

ونظر في ساعة يده قبل أن يوجه حديثه للحاضرين قائلًا:

- أعتقد أن هناك فرصة لسؤال أخير.

ارتفعت العديد من الأيادي إلا أن يوسف لاحظ أن هناك فتاة تبدو مترددة، فهي تارة ترفع يدها وتخفضها تارة أخرى.

أثار ترددها انتباه يوسف الذي أشار إليها، فنظرت إليه وبدت متوترة وهي تشير لنفسها لتتأكد من أن يوسف يقصدها هي، أومأ يوسف برأسه قائلًا:

- نعم أنتِ، تفضلي.

نهضت الفتاة من مقعدها، كانت محجبة يوحي مظهرها بأنها تتمتع بذوقٍ راقٍ في اختيار ملابسها، عدلت من وضع نظارتها على وجهها محاولة أن تستعيد رباطة جأشها وترتب أفكارها قبل أن تقول:

- هدير فتحي طالبة بالصف الثالث.

صمتت قليلًا وبدت مترددةً إلى أن حزمت أمرها وقالت:

- إنني مواظبة على الصلاة والصوم وكافة العبادات وأحاول جاهدة أن أعمل ما يرضي ربي، كثيرًا ما أسمع في دروس العلم عن عذاب القبر ومصير العصاة الذين سيدخلون النار لا محالة لتطهيرهم من الذنوب قبل أن يدخلوا الجنة... إذا ما دخلوها، أخشى ما أخشاه أن يكون سؤالي هذا فيه نوع من الإلحاد حاشا لله.

صمتت قليلًا لتلتقط أنفاسها قبل أن تتابع:

- لماذا لم يسألنا الله قبل أن يخلقنا ما إذا كنا نرغب في أن نُخلَق أم لا؟ لماذا لم يترك لنا حرية الاختيار قبل أن نخوض هذا الاختبار الصعب؟

جلست على مقعدها متحاشية النظر لأي من زملائها وتلاحقت أنفاسها بينما تعالت الهمهمات داخل المدرج.

***

سمعت ريم طرقات خفيفة على باب غرفتها قبل أن يُفتَح وتدخل منه والدتها، كان هذا هو الموعد اليومي لحضور والدتها والتي لم تفارقها منذ دخولها المستشفى إلا لقضاء حاجة ملحَّة أو الذهاب لمنزلها لتنال قسطًا من الراحة بنهاية اليوم.

نسرين فهمي؛ امرأة في العقد السادس من العمر، من الطبقة المتوسطة، جميلةٌ متوسطةَ الطول ذات قوام يميل للامتلاء قليلًا، أم لثلاث بنات أوسطهم ريم، توفي زوجها منذ بضعة سنوات تاركًا لها مبلغًا من المال لا بأس به بالإضافة إلى معاش شهري، رفضت جميع عروض الزواج بعد وفاة زوجها وآثرت أن تعيش بمفردها.

تهللت أسارير ريم ونهضت لتحيي أمها التي احتضنتها في حنانٍ قبل أن تتجه لفراش حفيدتها حلا لتطبع قبلةً على جبينها، فتحت حلا عينيها ببطءٍ لتجد أمامها جدتها وعلى وجهها ابتسامة حنون وهي تلتقط أناملها الرقيقة لتقبل راحة يدها وهي تحييها وتسألها كيف قضت ليلتها.

بصوتٍ واهنٍ أجابتها حلا بأنها بخير وأنها قد قضت ليلة البارحة وهي تشاهد التلفاز مع أمها إلى أن غلبها النّعاس.

ابتسمت الجدة وربتت على يد حفيدتها قبل أن تسحب كرسيًا وتجلس إلى جوار ريم، وعلى مقربة من فراش حلا التي أمسكت بجهاز التحكم في التلفاز وقامت برفع الصوت وأشارت للجهاز مخاطبة أمها قائلة:

- إنه البرنامج الذي تتابعينه في البيت يا أمي.

التفتت ريم لشاشة التلفاز لتجد إعلانًا عن موعد إذاعة البرنامج الذي تتابعه، برنامج "رأيت الله"، وصورة الدَّاعية يوسف مالك تتوسط الشاشة وعلى شفتيه ابتسامته المعهودة.

نظرت والدتها بدورها للشاشة ثم ما لبثت أن قطبت حاجبيها محاولة أن تقدح زناد فكرها علَّها تتذكر أين رأت يوسف قبل ذلك، انفرجت أساريرها قبل أن تلتفت إلى ريم وتسألها:

- أليس هذا زميلك في الجامعة الذي تقدَّم لخطبتك منذ سنوات؟

مطَّت ريم شفتيها وحاولت جاهدةً ألا تفضح قسمات وجهها ما يجول في صدرها، وبكلمات مقتضبة أجابت:

- نعم هو يا أمي.

شردت ريم بأفكارها وهي تتذكر أيام الجامعة وكيف التقت يوسف للمرة الأولى؛ شابٌ وسيمٌ هادئ الطباع دمث الخلق يحفظ كتاب الله، كان لقاءً قصيرًا لم

يتجاوز الدقائق المعدودة إلا أنه نجح خلال تلك الدقائق الوجيزة أن يجذب انتباهها.

لم تعرف بالتحديد ما الذي جذبها إليه، هل هو أسلوب كلامه أم وجهه البشوش أم ربما هي ابتسامته الطفولية؟! تكررت لقاءاتهما وزاد تقاربهما إلى أن اقتربت امتحانات نهاية العام. وبينما هما جالسان كعادتهما في كافيتريا الكلية إذ به يفاجئها برغبته في الارتباط بها، بالرغم من أنه لم يمض على وفاة والده إلا شهورٌ قليلة، إلا أنه يرغب في خطبتها من أهلها، فهو لا يتصور حياته بعيدًا عنها.

احمرَّت وجنتاها وكاد قلبها يرقص طربًا، فيما عَلت دقاته حتى خُيل إليها أنه حتمًا سيطلب منها أن تخفض صوت دقاته قليلًا ليسمع أحدهما الآخر، واتفقا على أن ينتظرا ظهور النتيجة بينما تكون هي قد مهَّدت له مع أهلها هذا اللقاء.

بعد ظهور النتيجة، جلست مع أمها جلسة مطوَّلة أخبرتها فيها بكل شيء وعن رغبة يوسف في الارتباط بها، احتضنتها أمها في حنان ونصحتها بأن تترك لها مهمة إخبار أبيها أنَّ هناك عريسًا يطلب مقابلته، وطمأنتها بأنها متأكدة من موافقته فهو رجل دينٍ، ويوسف على حد قولها إنسانٌ متدين حافظ لكتاب الله.

تذكر ريم جيدًا ما حدث بعدها، فقد جلس معها أبوها ووالدتها التي بدا عليها الوجوم مما أثار قلق ريم مما هو آت، نظر إليها أبوها قائلًا:

– لقد كبرت يا ريم وكثُر خطابِك.

ابتسمت ريم ابتسامة باهتة فتابع قائلًا:

– لقد فاتحني صديقي الحاج حسين في رغبته أن يخطبك لولده محمود، وقلت له إنني يجب أستشيرك أولًا.

وقع عليها الخبر كالصاعقة، حاولت أن ترد ولكنها تلعثمت في البداية إلا أنها استجمعت شجاعتها وأوضحت له أن هناك من يريد خطبتها من زملاء الجامعة وترجوه أن يعطي له الفرصة لمقابلته، رد عليها أنه قد اتفق مع الحاج حسين وهو صديقه المقرب، ولا يشك لحظة في أن ابنه محمود سيحافظ عليها.

توسَّلت إليه ليعطي فرصة ليوسف، فهو شابٌ متدينٌ حافظ لكتاب الله ومما لا شك فيه أنه سيعجب به، وافق على مضضٍ أن يقابله وذلك بعد إلحاحِ منها ووالدتها، شريطة أن تقبل الزواج بمحمود دون نقاش إذا لم يلقَ يوسف قبولًا لديه. تهللت أساريرها فقد أيقنت أن والدها سيعجب بيوسف لا محالة، أو هكذا ظنت.

انتزعها من أفكارها صوت والدتها وهي تحرك كفها أمام وجهها وهي تقول:

– ريم... ريم، أين ذهبتِ.. بمَ تفكرين؟

نظرت إلى والدتها وابتسمت ابتسامة باهتة وهي تقول:

– لا شيء يا أمي لقد شردت قليلًا.

أدركت والدتها بمَ كانت ريم تفكر، نظرت إليها مشفقةً وهزت رأسها في أسى قبل أن تقول:

– رحم الله أباك، لم يعرف حينها ما ستؤول إليه الأمور، كان كل ما يطمح إليه أن يؤمِّن لك حياةً كريمةً.

هزت ريم رأسها نفيًا:

– لا يا أمي المشكلة ليست مشكلة الحياة الكريمة التي أرادها لي أبي أو هكذا كان يتخيل، المشكلة أنه لم يعطِ يوسف الفرصة مطلقًا فقد عقد النية قبلها على ألا يقبل به، ونظر إلى المركز المادي لصديقه الحاج حسين.

سألتها أمها:

– وهل تلومينه على ذلك كأب؟! كيف تلومينه وقد كان الاختيار بين محمود بإمكاناته أو يوسف الذي توفي والداه ولم يتركا له من حطام الدنيا شيئًا، اللهم إلا الشقة المؤجرة التي يعيش فيها مع أخيه الأصغر!

حركت ريم رأسها يمنة ويسارًا وهي تقول:

– بالطبع لا يا أمي، إنما ألومه على ما حاول أن يقنعنا به طوال حياتنا، وعندما حانت لحظة الاختيار لم يفكر مرتين، لقد اختار أن ينحي الدين جانبًا ليضمن لابنته الحياة الكريمة التي تتحدثين عنها.

علت الدهشة وجه نسرين وسألتها: ماذا تقصدين؟.

تنهدت ريم قبل أن تقول:

– هل تذكرين النقاش الذي دار بيننا، وكيف أنني حاولت إقناعه بيوسف وأنه ملتزم يحفظ كتاب الله، بينما محمود هذا هو أبعد ما يكون عن الالتزام؟.

أومأت أمها برأسها إيجابًا فتابعت ريم قائلة:

– كان رده أن محمود شابٌ لا يزال في مقتبل العمر، والله قادرٌ أن يهديه، بينما يوسف لا يملك أقل قدرٍ من متطلبات الزواج.

وبنبرةٍ متهكمةٍ استطردت:

– أوليس الذي يهدي هو الذي يرزق؟ لماذا لم يقتنع أبي بهذا؟.

أم أن هذا الكلام يتشدقون به على المنابر فقط ولا يصلح لأمورنا الحياتية، وآخر حدوده هو باب المسجد الذي قيل فيه؟.

شهقت الأم واضعةً كفها على فِيها وكأنها تستنكر ما قالته ريم قبل أن تحثها على الاستغفار لئلا تفتح بابًا للشيطان.

كانت حلا لا تُلقي بالًا بما يدور بين أمها وجدتها، فقد كانت تتابع إحدى حلقات الرسوم المتحركة التي تعشقها.

أطلقت ريم زفرةً حارةً وكأنما تزيح ثقلًا عن كاهلها، وهمَّت أن تقول شيئًا إلا أن رنين هاتفها المحمول حال دون ذلك، التقطته ونظرت إلى شاشته قبل أن تجيب. أتاها صوت محدثها متلعثمًا مقرونًا بالبكاء حتى أنها لم تفهم منه شيئًا، فقالت:

– سعديَّة هدئي من روعك، إنني لا أفهم شيئًا مما تقولين أرجوكِ توقفي عن البكاء، سأنهي المكالمة وسأعاود أنا الاتصال.

قالتها وأنهت المكالمة وقالت لوالدتها:

– إنها سعديَّة، لا أدري ما حدث ولكنها تبدو لي منهارة. عاودت الاتصال، وما أن أتاها صوت سعديَّة حتى طالبتها بأن تهدأ وتقص عليها ما حدث.

***

ما إن استمع يوسف لسؤال هدير حتى أرخى جسده على كرسيه، لقد كانت الأسئلة تدق ناقوس الخطر، فهي تصب في اتجاهٍ واحدٍ، ألا وهو التمرد على الدين بل ربما لا يكون مبالغًا إذا ما قال إن سؤال هدير هو تمرد على الخالق ذاته.

أطلق زفرةً حارةً قبل أن يقول:

- دعيني أسألك أولًا: هل لديك سيارة؟.

أومأت برأسها إيجابًا، فتابع قائلًا:

- هل استأذنتِ سيارتك قبل أن تستخدميها؟.

ارتسمت على وجهها أمارات الدهشة وهي تهز رأسها نفيًا:

- بالطبع لا، كيف لي ذلك؟.

سألها ثانية:

- هل تظنين أن صانعها قد أعطاها الخيار في أن تُصنَع أم لا؟.

هزت رأسها نفيًا.

سألها مجددًا:

- هل استأذنك والداك في أن ينجباك؟ هل عرضا عليكِ عدة اسماء لتختاري من بينها الاسم الذي تحملينه؟.

عدَّلت وضع نظارتها على وجهها وهي تجيب: بالتأكيد لا.

لم تغادر الابتسامة شفتيه وهو يقول:

- إذا كان هذا هو الحال معك ووالداكِ، فكيف تريدين من الله أن يستأذنك أو حتى يخيرك؟ لكنه وعلى الرغم من أنه لا يتحتم عليه ذلك... إلا أنه قد خيَّرك.

قطبت جبينها ونظرت له في دهشة متسائلة: ماذا؟ وكيف ذلك؟.

أومأ برأسه وتابع قائلًا:

– لقد خيَّرنا الله، نحن والسماوات والأرض والجبال في أن نحمل الأمانة[١٩] أي التكاليف من عبادات وكل ما أوجبه على عباده من أمرٍ ونهيٍ وحلالٍ وحرامٍ. السماوات والأرض والجبال أدركوا عِظَم الأمر فامتنعت عن حملها، لكننا نحن الذين قبلنا[٢٠].

رفعت حاجبيها وبدت مندهشةً مما تسمع، ثم سألت:

– إنني لا أذكر أنني اخترت شيئًا.

سرَت الهمهمات في القاعة إلا أنها لم تبالِ واستطردت:

– ثم كيف خيرنا؟ والأهم ما الذي دفعنا لاختيار هذا الحمل الثقيل؟.

أجابها:

[١٩] {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} الأحزاب الآية [٧٢].

[٢٠] التفسير الميسر - الدكتور عائض القرني. تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي (https://www.youtube.com/watch?v=lCksc8xaA_s).

– بالنسبة أنك لا تذكرين، فسأتعرض لهذه المسألة لاحقًا، أما بالنسبة للسبب، فهو الطمع في السعادة الأبدية التي تنتظر من يراعي الأمانة التي حملها حق رعايتها، فالمكافأة هنا هي النعيم الأبدي في الجنة.

أما كيفية التخيير، فهناك خلاف بين العلماء عن الكيفية التي خيرنا بها الله، ولكني لا أشغل نفسي بذلك كثيرًا فهو لن يغير شيئًا في قناعاتي بأن الله قد فعل ذلك حقًا.

الله يقبل منَّا أعمالنا وهي قليلة ويغفر لنا تقصيرنا وهو كثير، ويعد الذين أمنوا منَّا وعملوا الصالحات بالفوز بالجنة، فالحياة الأبدية في الجنة هي السبب الذي اختار الإنسان من أجله أن يحمل الأمانة.

أما بالنسبة لنقطة أنك لا تذكرين أن الله قد خيَّرك، فدعيني أقول لك إن الله بقدرته قد جمع ذرية آدم عليه السلام وهم ذرات في علم الغيب وسألهم، هل يشهدوا بأنه هو ربهم [٢١]؟ فشهدوا جميعًا وأقرُّوا بذلك، وقد فعل ذلك لئلا يكون لهم حجة يوم القيامة ويقولون لم نكن نعلم[٢٢].

---

[٢١] {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ}
الأعراف الآية [١٧٢]

[٢٢] التفسير الميسر - للدكتور عائض القرني. تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي
(https://www.youtube.com/watch?v=xIqVypqE_Uw)

نهضت من مقعدها وهتفت: لم يسألني أنا.

ضحك يوسف وهو يقول: أولسنا جميعًا ذرية آدم؟.

أجابته:

– بلى، ولكن معنى ذلك أنه بعد أن شهدنا وأقررنا بأنه هو ربنا، محى الله ذلك من ذاكرتنا، لماذا فعل ذلك؟ لو لم يفعل لكانت كل ذرية آدم مؤمنين.

نظر إليها مستنكرًا وقال:

– إن الله لا يُسأل عما يفعل[٢٣]، ثم من أخبرك أن الله قد محى ذلك من ذاكرتنا؟ أنا لم أقل ذلك، أنتِ افترضتيه.

أشار إليها وتابع قائلًا: هل تذكرين لحظة ولادتك؟.

مطت شفتيها قائلة: بالطبع لا.

سألها مجددًا: هل تذكرين تفاصيل حياتك منذ ولادتك وحتى بلغتِ من عمرك عامين أو ثلاثة؟

حركت رأسها نفيًا، فتابع قائلًا:

[٢٣] {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} الأنبياء الآية [٢٣]

– بالضبط، ليس معنى أنك لا تذكرين... أن الله قد محاها من ذاكرتك، على العكس من ذلك تمامًا، ولأنك لا تذكرين كحالنا جميعًا، فإن الله لم يتركنا هكذا دون مساعدة، لقد أرسل لنا رسله ليرشدونا إلى الطريق الصحيح.

ارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يتابع قائلًا:

– من يدري، ربما لو كنت تذكرين، لم يكن الله ليتجاوز عن سيئاتك، فأنت تعلمين يقينًا بوجوده وشهدتِ بذلك وأقررته، ولكن نسيانك هذا من الممكن أن يكون سببًا في أن يتجاوز الله عن تقصيرك، أعتقد أن هذه هي الإجابة عن سؤالك.

ارتفعت الأيدي مرة أخرى لمزيد من الأسئلة وتعالت الأصوات كل يرغب في إلقاء سؤاله. ألقى يوسف نظرةً خاطفةً على ساعة يده قبل أن يعتذر لهم بأن لديه ارتباطات أخرى لا يمكن تأجيلها، على وعد أن يقوم بالتنسيق مع إدارة الكلية لعقد ندوةٍ أخرى الأسبوع القادم للرد على جميع استفساراتهم.

التفت إليّ الدكتور جمال قائلًا:

– عذرًا دكتور جمال لا بدَّ لي من الانصراف الآن.

ما إن أنهى الدكتور جمال الندوة حتى انصرف يوسف متوجهًا إلى سيارته التي ما إن دلف إليها حتى قام بالاتصال بمعدِّ برنامجه لإبلاغه بموضوع الحلقة القادمة

من برنامجه والتي يحين موعدها في اليوم التالي، كانت رغبة يوسف أن تدور الحلقة حول "الإلحاد"، اعترض معدّ البرنامج واقترح موضوعًا آخر إلا أن اقتراحه قوبل بالرفض.

***

حكت سعديَّة ما حدث بالتفصيل لريم التي أخذت تطمئنها وتهدئ من روعها وأبلغتها أنها ستقوم بالاتصال بالمحامي الخاص بأسرتها لاستشارته، هدأت نفس سعديَّة قليلًا ومن ثَمَّ شكرت ريم وأمطرتها بالدعوات لها ولوالدتها وأن يمُن الله بالشفاء على الجميلة حلا.

ما إن أنهت ريم المكالمة حتى حكت لوالدتها ما دار مع سعديَّة ثم طلبت منها الاتصال بالأستاذ طارق المحامي، الذي تولى قضية طلاقها من زوجها محمود.

طارق جلال؛ صديق العائلة منذ أكثر من عشرين عامًا وهو الذي يتولى جميع شئونهم القانونية، أرمل في العقد السادس من العمر، يقطنُ في نفس العقار التي تقيم فيه والدتها، لم يحاول الزواج مرة أخرى بعد وفاة زوجته منذ ما يقرب من العامين.

بينما تحاول أمها الاتصال بطارق إذ بالباب يُفتح وتدخل الممرضة تهاني ومعها إحدى عاملات النظافة التي بدأت على الفور في تنظيف الغرفة، بادرتهم تهاني

بالتحيَّة ثم شرعت في تعليق بعض المحاليل لحلا التي بدت متأففة وهمَّت بالاعتراض إلا أن تهاني ابتسمت لها قائلة: لا اعتراض على الدواء، حتى نخرج من هنا سريعًا.

أطلقت حلا تنهيدةً وقالت بصوتٍ واهنٍ: لن أعترض طالما سأعود سريعًا للعب مع أصدقائي.

مسحت تهاني على رأسها في حنان وهي تقول: إن شاء الله.

وضعت نسرين هاتفها المحمول في حقيبة يدها وأخبرت ريم بأن طارق لا يرد، وأنه بالتأكيد سيعاود الاتصال بها لاحقًا.

ابتسمت ريم وقالت: ربما هو مشغول بإحدى القضايا وسيتصل عندما يستطيع ذلك، تنهَّدت قبل أن تتابع: حقًا إنني أريد أن أساعد سعديَّة، فعلى الرغم من أنها بدأت العمل معنا منذ أقل من عامٍ إلا أنها احتلت مكانة في قلبي، لم نر منها إلا كل الخير؛ فهي أمينة لا تنقل أسرار البيوت التي تعمل بها علاوة على تفانيها في عملها.

وافقتها والدتها على ما تقول بإيماءة من رأسها، وأضافت:

– وهي التي ... قطع كلامها رنين هاتفها المحمول، نظرت في شاشته وما أن تبينت شخصية المتصل حتى سارعت بالرد، كان المتحدث هو طارق الذي اعتذر لها عن عدم استطاعته الرد سابقًا لوجوده بقاعة المحكمة.

شرحت له باختصار ما حدث مع سعديَّة وكيف أن طليقها ينكر وقوع الطلاق، كما أنه يزعم بأنه فاقد الأهلية لوجوده بالسجن وبالتالي لا يمكنه أن يطلقها.

أنصت طارق باهتمام ثم أبلغها بأن المسجون بالفعل يفقد أهليته طوال فترة تواجده بالسجن، إلا أن فقد الأهلية ليس كما يدعي زوج سعديَّة، وإنما هو عدم قدرته على التصرفات القانونية المدنية كالبيع والشراء وخلافه، ولا يشمل هذا الزواج أو الطلاق.

تهللت أساريرها لما سمعته ثم عادت تسأله:

– هذا بالنسبة لفقد الأهلية.. حسنًا، ما هو التصرف حيال إنكاره تطليقها؟

أجابها بأن ما يعرفه هو أنها إذا كانت طلقةً واحدةً وأنكر الزوج ذلك، فإنه يؤخذ بكلام الزوج أي أن الطلاق لايقع؛ قانونًا هي لا تزال زوجته، وهذا أيضًا رأي الفقه إلا أنه يمكنها أن تطلب الخُلع منه إذا ما رغبت.

شكرته ثم أنهت المكالمة والتفتت إلى ابنتها لتجد أنها تتفحصها وعلى وجهها ابتسامة ذات معنى، ارتبكت نسرين ثم ما لبثت أن استعادت رباطة جأشها سريعًا قبل أن تسأل ريم بلهجةٍ مستنكرةٍ عن سبب تحديقها بها بهذه الطريقة.

غمزت لها ريم وهي تقول: كيف حال الأستاذ طارق؟

احمرَّت وجنتا نسرين وهي تنهر ابنتها نافيةً ما يجول بخاطرها، ومن ثمَّ أخبرتها أن تكف عن تخيلاتها وتتصل بسعديَّة لتنقل لها ما قاله المحامي، وأن من الأفضل لها أن تقوم بخلعه وهو الإجراء الأمثل من وجهة نظرها.

انتهت تهاني من تعليق المحاليل لحلا وإعطائها بعض المسكنات كما قامت بتغيير ملاءات الأَسِرَة، ما إن همَّت بفتح باب الغرفة حتى دوَّت صرخةٌ رددتها جنبات المستشفى.

فتحت تهاني الباب في سرعة واندفعت خارجًا ومعها نسرين وريم، كانت تلك صرخة والدة سارة في الغرفة المجاورة والتي أطلقتها قبل أن تسقط أرضًا غائبةً عن الوعي، بينما جثا زوجها بجانبها على ركبتيه والدموع تنساب على وجنتيه دون توقف، بينما جثا أحد الأطباء على ركبتيه بجوار الزوجة الغائبة عن الوعي محاولًا إسعافها وهو يصيح بعلو صوته مستدعيًا طاقم التمريض.

كان المشهد واضحًا للجميع، لقد رحلت سارة عن عالمنا، رحلت لتستريح من آلامها، رحلت قبل أن تتلوث روحها النقية، رحلت لأن مثلها يستحق حتمًا مكانًا أفضل من هذا العالم الذي لم يرحم سنها ولا براءتها.

هرعت نسرين وريم إلى الأم الثكلى في محاولة منهما لتقديم المساعدة إلا أن طاقم التمريض قام بإبعادهما وكذا فعل مع الأشخاص الذين بدأوا في التوافد بدافع الفضول كما هي العادة، حمل طاقم التمريض والدة سارة إلى إحدى الغرف المجاورة لتقديم الإسعافات اللازمة.

عادت ريم ووالدتها إلى غرفة حلا وما إن أغلقا الباب حتى ارتمت الأولى في أحضان والدتها وعلا نحيبها، أخذت نسرين تربِّت على كتفها محاولة تهدئتها، هي تعرف ما يجول في خاطر ابنتها، بالطبع لقد تأثر كلاهما بوفاة سارة، لكنها تعرف أن هذه الوفاة جعلت ريم تشعر بأن الموت يرفرف بجناحيه حول حلا.

شعرت حلا بالقلق وهي تنظر إلى والدتها وجدّتها وتساءلت بصوتٍ واهنٍ عما يحدث، وما هو سبب بكاء والدتها، جففت ريم دموعها بسرعة وحاولت أن تستعيد رباطة جأشها قبل أن تقترب منها، ونظرت لها في حنانٍ وابتسمت ثم قبلتها وطمأنتها بأن كل شيءٍ على ما يرام.

ابتسمت حلا وأعادت تشغيل التلفاز الذي علا صوته، إلا أن ريم أسرعت بخفض الصوت بالرغم من اعتراض ابنتها، تحججت بأنها فعلت ذلك لأنها تشعر ببعض الصداع فحسب.

جلست ريم ووالدتها بعيدًا عن حلا، هزَّت ريم رأسها في أسى وبصوتٍ خفيضٍ قالت:

– ما الذنب الذي اقترفته طفلة مثل سارة لكي تتعذب وتموت هكذا دون أن تأخذ حظها في الحياة؟ إذا كان هذا اختبار من الله لوالديها لدخول الجنة، فما ذنبها هي؟.

انزعجت الأم من أسئلة ابنتها، وقالت في سرعة:

– استعيذي بالله من الشيطان يا ريم، هل ستكفرين؟ لا تنسِ أن الله غفور رحيم، وهو يغفر لمن يشاء.

نظرت ريم مطولًا لوالدتها وهمَّت بالتعليق، إلا أن سعال حلا حال دون ذلك فما كان منها إلا أن هبَّت من مقعدها واقفة وتوجَّهت لها في سرعة، سعلت حلا مرة أخرى وأغمضت عينيها من الألم وهي تضع كفها على مؤخر رأسها تتأوه ألمًا، بنظرات ملتاعة أخذت ريم تسألها بماذا تشعر، أجابتها وهي تسعل بأنها تشعر بألمٍ في مؤخرة رأسها وبصدرها.

أسرعت ريم بالضغط على زر استدعاء طاقم التمريض، وما هي إلا لحظات قليلة حتى جاءتهم إحدى الممرضات التي قامت بدورها بالاستماع لريم، ومن ثَمَّ استدعت الطبيب المسئول الذي أجرى بدوره فحصًا سريعًا قبل أن يحرر روشتة بالعلاج المطلوب بالإضافة لبعض المسكنات.

قبل أن ينصرف الطبيب وبملامح هي مزيج من الخوف والقلق، سألته ريم عن ابنتها التي تزداد حالتها سوءًا يومًا بعد يوم. وكيف أنهم أمضوا بالمستشفى أسبوعًا حتى الآن دون إجراء أية فحوصات إضافية فيما عدا تحاليل الدم والأشعة المقطعية التي أُجريت لحلا في بداية الأسبوع المنصرم.

حاول الطبيب أن يطمئنها موضحًا أنه يتابع حالة حلا بنفسه، وأنهم بالمستشفى يبذلون ما في وسعهم، لكن لابد أن يكون هناك فاصل زمني قبل أن تخضع ابنتها لمزيد من الفحوصات حتى لا تتأثر صحيًّا نتيجة تعرضها لجرعات إشعاعية بصورةٍ كبيرةٍ.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ بعد خروج الطبيب حتى عادت الممرضة ومعها الدواء المطلوب، لتجد حلا وقد بدأت تتناول طعامها الذي حضر منذ قليل، أرادت أن تنصرف على أن تعود بعد أن تنتهي حلا من طعامها إلا أن ريم استوقفتها ودعتها لتناول كوبٍ من الشاي.

رحَّبت الممرضة بهذا حيث أنها بالفعل في حاجة ماسة لكوبٍ من الشاي، فلم تسنح لها الفرصة منذ الصباح لذلك لانشغالها بما حدث مع سارة.

نظرت لها نسرين محذرةً وبصوتٍ أقرب إلى الهمس طلبت منها ألا تذكر ذلك أمام حفيدتها حتى لا تتأثر نفسيتها، فهي دائمة السؤال عن سارة، أومأت الممرضة برأسها متفهمة.

عرفت منها أن اسمها فاطمة، وهي تعمل هنا منذ ثلاثة أعوام. سألتها ريم إن كانت حالة والدة سارة تسمح بتقديم واجب العزاء أم لا، فأخبرتها أنها قد أفاقت من إغماءتها وأنها بمفردها حيث ذهب والد سارة لإنهاء الإجراءات.

أنهت فاطمة كوب الشاي وشكرتها في حرارة قبل أن تنصرف، بمجرد أن استغرقت حلا في النوم حتى أشارت ريم لوالدتها ليذهبا لمواساة والدة سارة.

***

ما إن أنهى يوسف جميع ارتباطاته حتى توجَّه إلى شقته، فقد كان في حاجة إلى الراحة قبل أن يبدأ في إعداد نفسه من أجل برنامجه، كان لا يزال يقطن بتلك الشقة المستأجرة التي ورثها عن والده التي تقع في وسط البلد، كانت شأنها كشأن تلك المباني التي شُيدت في فترة الأربعينيات من القرن الماضي.

شقةٌ واسعةٌ ذات سقفٍ مرتفع يقارب الأربعة أمتار ارتفاعًا، تتكون من أربع غرف للنوم علاوة على الصالة التي تتسع لطاولة لتناول الطعام بالإضافة لصالونات استقبال الضيوف. قام يوسف مؤخرًا بتجديد الشقة بكاملها، لكنه حافظ على طرازها الكلاسيكي، فكان التعديل الوحيد الذي أحدثه هو أنه قد حوَّل إحدى غرف النوم إلى غرفة مكتب له.

أخذ حمامًا دافئًا وتناول طعامه ثم أعد لنفسه كوبًا من الشاي بالنعناع الطازج كما يفضله، جلس في غرفة مكتبه وبدأ في مطالعة بعض الكتب، ساعات عدة مضت وهو منهمكٌ في القراءة وتصفح مراجعه، حتى شعر أن عينيه قد أجهدتا، أغمضهما وأراح ظهره إلى الخلف على كرسيه.

ظل هكذا لبضع دقائق ومن ثم أغلق الكتاب الذي أمامه مكتفيًا بما قرأه ونهض من كرسيه ليعيد الكتاب إلى مكتبته، وبينما هو أمام المكتبة إذ وقعت عيناه على ألبوم الصور القديم، ذلك الألبوم الذي يحمل بين طياته كنزًا من الذكريات.

التقطه وبدأ في تصفحه، أدار ظهره للمكتبة ليستند إليها ومع كل صفحة يقلبها كانت ابتسامته تزداد اتساعًا، فها هي الذكريات تتدفق في مخيلته وكأنها حدثت البارحة، صوره مع والديه وأخيه في مراحل عمريةٍ ومناسباتٍ مختلفةٍ.

توقف عند إحدى الصور التي التقطت على شاطئ الأسكندرية وهو في السادسة من عمره، كانت الصورة له ووالده وأخاه الأصغر كريم وهم بلباس البحر، هو يقف إلى جوار والده ومياه البحر تصل إلى ركبتيه بينما حمل والده كريم الذي لم يتجاوز العامين وهو يبكي خوفًا من أن يبتل.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه عندما تذكَّر ذلك، بالطبع هو لا يتذكر كافة التفاصيل ولكنه يتذكر أخاه كريم.

بالفعل هو يفتقد كريم الذي لم يره منذ أن سافر للعمل بإحدى دول الخليج منذ عامين، كان كريم يتصل به على فترات متباعدة، وفي كل مرة يكون الرقم محجوبًا، وقد سأله عن ذلك فأخبره أنه يتصل عبر الإنترنت توفيرًا للنفقات.

توقف عند إحدى الصور لأخيه وهو في المرحلة الثانوية، بدا كريم في تلك الصورة متجهم الوجه وقد بدأت بعض شعيرات لحيته في النمو. كان يذكر تفاصيل ذلك اليوم، فقد طلبت المدرسة صورًا شخصية لطلابها، فما كان من والده إلا أن اصطحبه وأخاه لإحدى أستوديوهات التصوير المشهورة بجودة صورها في ذلك الوقت والذي يملكه جارهم حنَّا.

اعترض كريم على الذهاب إلى ذلك الاستوديو، وعندما سأله والده عن السبب أبدى أسبابًا واهية ولكن مع إصرار الوالد لم يكن أمام كريم إلا الإذعان،

هو يذكر ذلك اليوم جيدًا عندما جلس والده معها بعد عودتهم إلى البيت، وتحدث مع كريم لمعرفة السبب الحقيقي لرفضه الذهاب إلى ذلك الاستوديو.

في البداية حاول كريم المراوغة إلا أن أسلوب والده الهادئ في النقاش هو الذي جعله لا يجد مفرًا من أن يقول الحقيقة التي توقعها الأب منذ البداية، كان السبب هو اعتياد كريم التردد على أحد المساجد بعينها لحضور دروس العلم والتي أصدر إمامها فتوى بعدم جواز التعامل مع النصارى فهم كفار يأثم من يتعامل معهم.

لا يمكنه أن ينسى كلمات والده في ذلك اليوم وهو يحاور كريم بالحجة والبرهان ليفنِّد تلك الادعاءات، ذكَّره بكيفية تعامل الرسول ﷺ مع اليهود والنصارى، وليس أدل على ذلك من شهادة المفكر الفرنسي غوستاف لوبون[٢٤] الذي قال نصًا: "إنَّ مسامحة محمَّد لليهود والنصارى كانت عظيمة للغاية".

ولم يقتصر الأمر على المسامحة فحسب، بل أن الرسول ﷺ كان يتعامل مع اليهود في التجارة والمعاملات التجارية، وكان يعطي يهود خيبر الأراضي ليقوموا بزراعتها، على أن يكون لهم جزءٌ مما يخرج منها، وشهدت جميع الأسواق في عهد

[٢٤] غوستاف لوبون - (١٨٤١ - ١٩٣١): طبيب ومؤرخ فرنسي له العديد من المؤلفات. عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. لم يسر غوستاف لوبون على نهج معظم مؤرخي أوروبا، حيث اعتقد بوجود فضلٍ للحضارة الإسلامية على العالم الغربي .

الرسول ﷺ تواجد أعدادٍ كبيرةٍ من اليهود، كما كانت الأسواق اليهودية تزخر بالعديد من الباعة المسلمين.

ومن ضمن المعاملات أن الرسول ﷺ اشترى طعامًا من رجل يهودي بالأجل ورهن درعه في المقابل[٢٥].

بدت الحيرةُ على ملامح كريم وهتف:

– حتى وإن تعامَل معهم، فهذا لن يغير حقيقة أنهم سيدخلون النار.

سأله والده: من الذي قال هذا؟.

رفع كريم حاجبيه قائلًا: من يتخذ دينًا غير الإسلام سيدخل النار لا محالة[٢٦].

أومأ برأسه موافقًا وهو يقول:

– أتفق معك في هذه النقطة تمامًا، إن الجنة لن يدخلها إلا المسلمون، لكن دعني أسألك، من هم المسلمون؟

أجابه في سرعة: نحن هم.

لم تفارق الابتسامة شفتي والده وهو يقول:

---

[٢٥] عن السيدة عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اشْتَرَى طَعَامًا مِن يَهُودِيٍّ إلى أجَلٍ، ورَهَنَهُ دِرْعًا مِن حَدِيدٍ. صحيح البخاري رقم [٢٣٨٦].

[٢٦] {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران الآية [٨٥].

– إذًا فطبقًا لكلامك هذا، فإن اليهود والنصارى مصيرهم إلى النار، أليس كذلك؟!

أومأ كريم برأسه موافقًا، فتابع الأب قائلًا:

– إن هذا قصور في فهمك للآيات، لكن ما يجب أن تعلمه هو أن الإسلام دين جميع الأنبياء منذ آدم إلى محمد ﷺ، معنى الإسلام هو الاستسلام والانقياد لله سبحانه وعدم الإشراك به.

وليس أدل على ذلك من أن الله أخبرنا أن أنبياءه ورسله هم مسلمون، منهم إبراهيم[٢٧] ونوح[٢٨]، ولم يقتصر الأمر على الأنبياء والرسل فقط، فقد كان هناك أبناء نبي الله يعقوب[٢٩] والحواريين أنصار نبي الله عيسى[٣٠].

صمت قليلًا وتنهَّد قبل أن يقول:

---

[٢٧] {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} آل عمران الآية[٦٧].

[٢٨] {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} يونس الآية[٧٢].

[٢٩] {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة الآية [١٣٣]

[٣٠] {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} المائدة الآية [١١١]

– لمَ تشغل بالك بغيرك؟ اشغل بالك بنفسك، واسأل نفسك؛ هل ستدخل الجنة أم النار؟ هل تظن كونك مسلمًا سببًا كافيًا لتدخل الجنة؟.

إذا كنت تقرأ القرآن كما تقول، فستجد أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر أن الإيمان وحده سيدخلك الجنة، وإنما دائمًا ما يكون الإيمان مقرونًا بالعمل الصالح[٣١].

دع مصائر الناس لخالقهم، فإن دخول الجنة والنار بيده وحده سبحانه، فلن يضيرك إذا دخل الناس كلهم الجنة وأنت معهم، ولكن ما سيضيرك حقًا هو أن يدخلوا جميعًا وأنت لست فيهم.

انتزعه من أفكاره رنين هاتفه المحمول، نظر إلى شاشته فكان الرقم محجوبًا، توقع أن يكون كريم وكان كما توقع، مكالمة قصيرة اطمأنَّ فيها على أحواله وأبلغه بأنه سيزور مصر في القريب العاجل، أنهى المكالمة ونظر إلى ساعته ليجد أن عقاربها تشير إلى الواحدة صباحًا، أطفأ الأنوار واضطجع إلى فراشه وأسلم جفنيه للنوم.

***

[٣١] {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} الكهف الآية [١٠٧]

استيقظت ريم من نومها على صوت ابنتها تناديها، نهضت من فراشها وأسرعت إليها، طلبت منها حلا بصوتٍ واهنٍ أن تساعدها في الذهاب إلى دورة المياه، عاونتها في النهوض وبدا لها أنها تعاني من بعض الدوار فهي بالكاد تستطيع الوقوف على قدميها.

ضغطت زر استدعاء طاقم التمريض إلا أن أحدًا لم يحضر، فما كان منها إلا أن حملت ابنتها إلى دورة المياه.

كانت حلا تتأوه ألمًا بعدما زال تأثير المسكنات التي حُقِنَت بها قبل ساعات، بعد أن فرغت حلا من قضاء حاجتها وقبل أن تعود إلى فراشها مرة أخرى، حضرت فاطمة واعتذرت عن التأخير فقد كانت تقوم بمساعدة إحدى الحالات، عاونت ريم في إعادة ابنتها إلى الفراش وبينما هي كذلك إذ لفت انتباهها التوتر الذي غلَّف قسمات وجهها.

سألتها فاطمة إن كان كل شيء على ما يرام؟ أعربت ريم عن قلقها لأن حالة حلا تزداد سوءًا وخاصةً الآلام التي تشعر بها في مؤخرة رأسها، طمأنتها أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأنه سيتم اليوم عمل الفحوصات المطلوبة والتي سيتحدد بعدها موعد إجراء العملية.

سمعا طرقات بسيطة على الباب قبل أن تدخل إحدى العاملات ومعها طعام الإفطار، قالت فاطمة:

- سأذهب الآن على أن أعود مرة أخرى لإعطاء حلا بعض المسكنات لتخفف عنها بعد أن تنتهي من إفطارها.

مضى الوقت سريعًا وأنهت ريم وحلا إفطارهما وعادت فاطمة لإعطاء حلا الأدوية خاصتها ومن ثم اصطحبتها لإجراء الفحوصات والأشعة المطلوبة.

وبينما حلا في غرفة الأشعة تساءلت ريم عن السبب الذي جعل والدتها تتأخر في الحضور عن موعدها المعتاد فقد قاربت الساعة الثانية عشر ظهرًا ولم تأتِ بعد.

اتصلت بوالدتها لتطمئن عليها، وبدأ القلق يساورها عندما لم تُجب على اتصالها وتساءلت ما الذي حدث؟.

***

في أحد النوادي الرياضية الشهيرة بمدينة القاهرة جلس طارق ونسرين يتجاذبان أطراف الحديث، فبعد أن غادرت المستشفى البارحة، إذ بها تتلقى اتصالًا هاتفيًا من طارق يطلب منها مقابلتها في موضوع هام.

عرضت عليه أن تمر بمكتبه في الصباح، إلا أنه أخبرها أنه يفضل أن يكون اللقاء بعيدًا عن المكتب المكتظ بالعملاء والموظفين، فاقترحت أن يتقابلا في النادي ولم تترك له الفرصة ليعرض خيارًا آخر.

في البداية سألها طارق إن كانت أخبرت سعديَّة بما قاله لها، وكيف ستتصرف مع زوجها؟ ردت نسرين بأن سعديَّة انهارت ولم تتمكن من أن تستكمل المكالمة، إلا أنها ترى أن يتولى تلك القضية، فهي تريد مساعدتها إذا ما أمكنه ذلك.

هزَّ رأسه موافقًا ثم سألها عن أحوال ريم وحلا، أخبرته بمرض حلا واحتجازها بالمستشفى وأنها في انتظار ما ستسفر عنه الفحوصات لمعرفة خطوات العلاج، بدا عليه التأثر مما سمع وألقى عليها اللوم في عدم معرفته بهذا وخاصة في ظل العلاقة التي تربطه بالعائلة.

أخبرته أنها لم تكن تريد أن تشغل باله ولكنها بالتأكيد كانت ستخبره فور ظهور نتيجة الفحوصات، أطلق زفرةً حارةً وصمت قليلًا وبدا مترددًا، لاحظت نسرين تردده فسألته إن كان هذا ما كان يريد مقابلتها بشأنه؟

حرك رأسه نفيًا ونظر إليها مطولًا ثم حسم أمره قائلًا:

– نسرين، نحن نعرف بعضنا البعض منذ فترة طويلة وتعرفين أنني لا أحب المراوغة وأفضل أن أدخل في صلب الموضوع مباشرة.

تعلقت أنظارها به فقد كانت تعرف إلى أي اتجاه يسير هذا الحديث، نظر في عينيها ودون أي مقدمات سألها:

– أتقبلين الزواج بي؟

بذلت جهدًا غير عادي لتحافظ على هدوئها وتمنع مشاعر الفرح من أن تطفو على ملامحها، ونجحت بكثير من الجهد، ثم رفعت حاجبيها في دهشة حاولت أن تبدو غير مصطنعة وسألته:

– تتزوجني أنا؟ وفي هذه السن؟ إنني أبلغ من العمر ٥٧ عامًا.

بدا متيمًا بها تفضحه نظراته وهو يبتسم قائلًا:

– ٥٧ عامًا! وإن كانوا ١٥٧ عامًا، أنتِ نسرين، أنت لا تعلمين ماذا تعني لي نسرين... أنتِ نسرين وكفى.

تورَّدت وجنتاها خجلًا، ثم ما لبثت أن نهضت واقفة وتلعثمت وكأنها فتاة في سن المراهقة وهي تعتذر بأنها لابد أن تذهب إلى المستشفى لابنتها.

تعلقت عينا طارق بها وبنبرةٍ صوتٍ لا تخلو من رجاء قال:

– ولكنك لم تجيبي على سؤالي! التزمت الصمت متحاشيةً النظر إليه.

فتنهد قبل أن يقول:

– حسنًا أتعشم أن هذا ليس رفضًا لكنه فرصة للتفكير، لم تجبه وأسرعت مغادرةً تلاحقها نظراته.

***

انتظرت سعديَّة بجوار مسجد قريتها إلى أن فرغ المصلُّون من صلاة الظهر، ذهبت إلى الإمام وقصَّت له ما حدث ونصيحة السيدة ريم لها بأن تخلع زوجها، قال لها أن الخُلع من حقها إن كان هناك ضرر، إلا أنه لا يستطيع أن ينصحها به، فإن من أفسد امرأة على زوجها لن يدخل الجنة[٣٢].

وإن من الواجب عليها أن تطيع زوجها فهي لا تزال في عصمته، فهو كما ذَكَرَت قد طلَّقها طلقةً واحدةً، والإثم يقع على زوجها الذي ينكر وقوع الطلاق، وإن الوضع كان سيتغير إذا ما كان زوجها قد طلقها ثلاثًا، ففي هذه الحالة لا تحل له، وتأثم هي إن مكَّنته من نفسها.

لا تعرف سعديَّة كيف قطعت المسافة بين المسجد وشقتها، إلا أنها وبمجرد وصولها جلست أرضًا وأخذت تنتحب، تجمَّع أبناؤها حولها يواسونها في محاولة منهم للتخفيف عنها، واحتضنتها ابنتاها فيما ظل ابنها واقفًا متجهم الوجه وهو يربت على كتفها.

أطلق زفرةً حارةً قبل أن يقول:

- لا تخافي يا أمي لن يستطيع أيًّا ما كان إيذاءك وأنا على قيد الحياة.

[٣٢] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ» - سنن الترمذي [٢١٧٥].

وجزَّ على أسنانه وهو يعيدها مؤكدًا: لن يستطيع.

بعينين مغرورقتين بالدموع رفعت سعديَّة رأسها تتفحصه، كانت وكأنها لم تلاحظ من قبل أن ابنها صار شابًا يافعًا، وبرغم سنوات عمره السبعة عشر إلا أنه يبعث الطمأنينة في نفسها، كيف لم تلاحظ التحولات الذي طرأت على شخصيته قبل جسده.

نهضت من جلستها واحتضنته وهي تدعي الله أن يحفظه لها وبناتها وتقول له أن وجوده معهم هو ما يجعلها تشعر بالأمان.

***

انتهت حلا من الفحوصات الطبيَّة وعادت هي وريم إلى غرفتهما لتجد جدتها في انتظارهما، التي ما أن رأتهما حتى أمطرتهما بقبلاتها، فرحت حلا بهذا الترحيب الحار من جدتها بينما شعرت ريم بالدهشة بهذا الترحيب فهما لم يغيبا عنها سوى بضع ساعات.

تمدَّدت حلا على فراشها بينما جلست ريم إلى جوار والدتها وهي تنظر لها مدققةً محاولة سبر أغوارها، لاحظت نسرين نظرات ابنتها وحاولت أن تتجاهلها إلا أنها سألتها في النهاية لماذا تنظر لها هكذا؟

أجابتها أنها حاولت الاتصال بها أكثر من مرة دون جدوى، وما زاد من قلقها هو تأخرها عن الحضور في موعدها المعتاد.

أخرجت نسرين هاتفها من حقيبة يدها ونظرت في شاشته لتجد أن هناك عدة محاولات من ابنتها للاتصال بها، هزَّت كتفيها وعلَّقت بأنها لم تسمع رنين الهاتف. رفعت ريم حاجبيها متعجبة وهي تقول إن هذا يجيب عن السؤال الأول، ولكن السؤال الأهم أين كانت هذا الصباح؟

ابتسمت نسرين وحكَت لها تفاصيل ما دار بينها وبين طارق، تهللت أسارير ريم ونهضت من مقعدها واحتضنتها وهي تقول مازحةً:

– مبروك يا نوسة، لقد عشت لليوم الذي رأيتك فيه عروسًا.

تورَّدت وجنتا نسرين خجلًا فدفعت ريم في كتفها مازحة وهي تطلب منها أن تكف عن هذا، فهي لن توافق على طلب طارق على أية حال.

فغرت ريم فاها متعجبةً وهمَّت بأن تعلق على ما قالته أمها، إلا أن حلا نادت عليها وهي تشير إلى التلفاز منبهة إياها أن البرنامج الذي تنتظره على وشك أن يبدأ.

نظرت ريم لوالدتها قائلة:

– إن النقاش لم ينته عند هذا الحد، وإن للموضوع بقية، ابتسمت والدتها وهي تحرك سبابتها في إشارة بالنفي، ومن ثَمَّ جلستا سويًا لتتابعا برنامج يوسف مالك.

***

استهل يوسف برنامجه بالترحيب بمشاهديه سواءً من يتابعونه أمام شاشات التلفاز أو الحاضرين معه في الأستوديو، نوَّه أن حلقة اليوم من برنامجه "رأيت الله" ستكون حلقة مختلفة عمَّا سبقها، فقد كانت الحلقات السابقة تدور حول صفات الله ومراقبته سبحانه في تصرفاتنا كأننا نراه، أما حلقة اليوم فسيكون موضوعها هو "الإلحاد".

صمت قليلًا قبل أن يستطرد:

– بداية نود أن نُعَرِّف ما هو الإلحاد؛ الإلحاد هو مصطلح يستخدم لوصف تيارٍ فكري وفلسفي ينكر وجود خالق أعظم لا يمكن إدراكه بحواس الإنسان أو بالمنطق، بالتالي فهذا التيار لا يعترف بأي ديانة من الديانات المعروفة.

والملحد في العموم شخصٌ حاد الذكاء، يصدق فقط في العلم وما تدركه حواسه، فالإيمان بالغيبيات لا يشغل أي حيزٍ من تفكيره.

وما أن انتهى من تلك المقدمة حتى ورد إليه أول اتصالٍ هاتفي، عرف صاحبه نفسه أنه مصطفى من القاهرة، وليس لديه سؤال محدد وإنما نقطتان يطرحهما للمناقشة؛ النقطة الأولى أنه لا يعتقد في وجود ديانات سماوية وإنما هي كذبه كبرى روَّج لها أصحابها ليتبعهم الناس، والدليل على ذلك هو التشابه الشديد بين الديانات الثلاثة فيما عدا اختلافات بسيطة، هذا التشابه الذي يعني شيئًا واحدًا ألا وهو أن هؤلاء الرسل المزعومين قد نسخوا من بعضهم البعض.

والنقطة الثانية هي أن الدين هو مصدرٌ للشرور لا جدال فيه، وليس أدل على ذلك من الجماعات الإسلامية والتي ليس لها هدف إلا سفك الدماء وترويع الأبرياء.

أنصت له يوسف في اهتمام ثم سأله إذا ما كانت هناك أيّ نقاط أخرى يريد طرحها، فأجابه بالنفي وأنه يكتفي بهذا، ارتسمت على وجه يوسف ابتسامة وهو يقول من الواضح أن هذه الحلقة ستكون ساخنة، وتنحنح قبل أن يستطرد قائلًا:

– بداية أود أن أشكر مصطفى على مشاركته اليوم. وبالنسبة للنقطة الأولى فسأضرب لك مثلًا؛ إذا فرضنا أن لديك برميلًا من العسل وهذا البرميل به ثلاث حنفيات، فإذا ملأنا من كل حنفية كوبًا فسيكون محتوى الأكواب واحدًا بالرغم من اختلاف الحنفية، لأن المصدر واحد. أما إذا أضفنا إلى الكوب الأول قطرات من عصير الليمون وإلى الثاني بعضًا من الفانيليا وأبقينا على الثالث دون إضافات، سيكون لدينا ثلاثة أكواب من العسل بمذاقات مختلفة. فإذا تمكننا من فصل الليمون والفانيليا عن العسل بالكوبين الأول والثاني فسيتبقى العسل الصافي كما في الكوب الثالث، وكذلك الحال بالنسبة للديانات السماوية الثلاث، فالتشابه بينها يرجع إلى أنها جاءت جميعًا من نفس المصدر رغم اختلاف النبي المرسل. أما بالنسبة لاتهامك للدين أنه مصدرٌ للشرور مدللًا على ذلك بالجماعات المتطرفة، فدعني أقول لك أن عدد مسلمي العالم يزيدون عن ١,٦ مليار مسلم.

نظر إلى الجمهور يسألهم، كم منهم ينتمون لتلك الجماعات؟ لم يجد ردًا، فتابع قائلًا:

– مليون شخص، بل دعنا نفترض أن هناك ١٠ مليون شخص ينتمون لهم، فهل نتَّهم دينًا أنه مصدرٌ للشرور بسبب أفعال نسبة لا تتجاوز ١٪ من أتباعه، ونتجاهل الأغلبية التي تزيد عن ٩٩٪.

في رأيي أن هذا ظلمٌ بيِّن، يجب أن نُفَرق بين الدين وسلوكيات بعض أتباعه، لا توجد دولة يعيش أفرادها في ظل غياب القانون، وكلنا يعرف ما حدث في بعض الدول عندما غاب القانون نتيجة احتجاجات أو ثورات. أما الدين فهو القانون الإلهي، الذي بدونه كنا سنعيش في غابة.

فكرة أن الإنسان سيحاسب على أفعاله بعد موته، هي التي تمنعه من ارتكاب تلك الجرائم، وليس معنى أن هناك من يرتكبها، أن يُتهم الدين بأنه مصدرٌ للشرور، الكل يعرف أن القتل والزنا وشرب الخمر منهِي عنهم في الديانات السماوية جميعًا، لا يوجد نص أو آية تبيح ارتكاب مثل هذه الأفعال إلا أنها تُرتكب يوميًا، فهل نلوم الدين؟ بالطبع لا، بل نلوم السلوك الخاطئ لأتباع هذا الدين.

في النهاية أود أن أسألك، هل كان الدين طرفًا في المجازر التي ارتكبت في حق مسلمي الروهينجا [٣٣]؟ أو المحرقة النازية التي عرفت باسم الهولوكوست وراح ضحيتها مئات الآلاف من اليهود؟

هل كان للدين يد في إبادة الملايين من سكان أمريكا الأصليين؟ أو مقتل الملايين من ضحايا الحربين العالميتين الأولى والثانية؟

بالطبع لأ، أظن أن هذه هي الإجابة على سؤالك.

ارتفع صوت تصفيق الجمهور المتواجد بالأستوديو وارتفعت بعض الأيادي كلٌ يرغب في أن يطرح سؤاله، إلا أنه ورد اتصال آخر قبل أن يختار أحدهم.

قدم المتصل نفسه باسم هشام وكان أحد الحاضرين لندوة الأمس، ومن ثمَّ قال:

– لقد استمعت لما قاله الأستاذ مصطفي في المكالمة السابقة، وأتفق معك تمامًا أن الدين ليس مصدرًا للشرور ولكنه بالتأكيد سببًا للجهل والتخلف عن ركب الحضارة. أوروبا على سبيل المثال، عندما كانت تعاني من سطوة الكنيسة قبعت في

[٣٣] الروهينجا مجموعة عرقية تمثل أقلية في ميانمار ويدينون بالدين الإسلامي. يبلغ عددهم نحو مليون نسمة ويعيشون في ولاية راخين الساحلية الغربية. تحرمهم الحكومة في ميانمار من الحصول على الجنسية وتملك الأراضي والتصويت والسفر. يعانون من القمع والاضطهاد والاغتصاب والقتل الجماعي على يد الجيش وقد هرب مئات الآلاف منهم لتايلاند وبنغلاديش التي يرتبطون بها عرقيا.

عصور الظلام، ولم تكن لتتقدم وتصل إلى ما وصلت إليه إلا بعدما نحَّت الدين جانبًا، فتخلصت من سطوة الكنيسة وبدأت نهضتها الصناعية حتى وصلت إلى ما نراه الآن. وعلى النقيض من ذلك في بلادنا العربية، حيث يغلب التدين على السواد الأعظم؛ مسلمين كانوا أو مسيحيين، وتزخر المساجد والكنائس بالمصلين، وما هي النتيجة؟ النتيجة هي أننا نتسول من الغرب الذي تصفونه بالكفر، نتسول منه الكثير، ليس فقط الطعام ولكن التكنولوجيا والعلوم في كافة المجالات. بل ويطمح الكثير منا للهجرة إلى هناك، ليتمتع برغد العيش في ظل قوانين تمنع قمع الحريات، فتجد معها آدميتك المفقودة.

انتظر يوسف إلى أن انتهى هشام من سؤاله أو بالأحرى اتهامه، سحب شهيقًا عميقًا قبل أن يزفر قائلًا:

– إن الدول الغربية ليست المدينة الفاضلة[٣٤] كما يصورها لنا الأخ هشام، وبالطبع معك حق في أن الكنيسة الكاثوليكية كانت السبب فيما آلت إليه الأمور في القرون الوسطى.

لكنك مخطئ في قولك إن تنحية الدين جانبًا هو ما صنع لأوروبا التقدم، فلم تنطلق أوروبا إلا بعد ظهور مذهبٍ جديدٍ عُرف باسم مذهب لوثر[٣٥]، هو الذي

---

[٣٤] المدينة الفاضلة هي أحد أحلام الفيلسوف اليوناني أفلاطون (٤٢٧ق.م-٣٤٧ق.م). هي مدينة كل شيء فيها مثاليًا، ليس في المظهر العمراني فقط، بل في كل شيء. فيجد فيها المواطن والمقيم والزائر أرقى وأكمل أنواع الخدمات وبأسلوب حضاري بعيدًا عن التعقيد والروتين وسوء التعامل، وهو ما سيجعلها فاضلة.

قاد الإصلاح الديني وأدَّى لاحقًا إلى نشوء البروتستانتية التي ساندت العلماء والاختراعات بالإضافة إلى تقويض سلطة الكنيسة الكاثوليكية في الأماكن التي انتشرت بها البروتستانتية.

وليس أدل على ذلك من الدراسة التي قدمها روبرت كنج ميرتون[٣٦] والتي تربط بين نشوء البروتستانتية في أواخر القرن الخامس عشر وبين نشوء العلم التجريبي الذي كان له أكبر الأثر في نهضة الغرب.

لا يمكننا إنكار التقدم العلمي الذي وصلت إليه الدول الغربيَّة، ولكنك تجور على الدين بمحاولتك إثبات أنه السبب في تخلفنا عنهم، لكن على العكس من ذلك تمامًا، فالتقدم والحضارة اللتان تتغزل بهما في الغرب، هما في الواقع نتاج جهد لعلماء مسلمين ومسيحيين.

فعلى سبيل المثال، في عام ١٩٢٧م قدَّم القس الكاثوليكي والعالم البلجيكي جورج لومتر[٣٧] الفرضية التي أصبحت لاحقًا نظرية الانفجار العظيم.

---

[٣٥] مارتن لوثر - Martin Luther (١٤٨٣ - ١٥٤٦م): هو مصلح ديني مسيحي شهير، ومؤسس المذهب البروتستانتي المسيحي.

[٣٦] روبرت كنج ميرتون - Robert King Merton (١٩١٠ - ٢٠٠٣م):عالم اجتماع أمريكي يعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث، قدم العديد من الدراسات أشهرها ما عرف بإسم "أطروحة ميرتون - Merton thesis" في عام ١٩٣٦م. حول الروابط بين الدين وصعود العلم الحديث.

[٣٧] جورج لومتر - Georges Lemaître (١٨٩٤ - ١٩٦٦م): عالم فلك وكاهن كاثوليكي بلجيكي الأصل، اقترح ما سمي فيما بعد نظرية الانفجار العظيم لنشأة الكون. كان أستاذًا للفيزياء وعلم الفلك بالجامعة الكاثوليكية بمدينة لوفان.

وهي النظرية التي لاقت قبولًا في الأوساط العلمية كأقرب النظريات التي تفسر نشأة الكون.

هل سمعت عن الخوارزمي [٣٨]؟ الخوارزمي هو أحد أعظم العلماء المسلمين في علوم الرياضيات. هو الذي أوجد علم الجبر وكذا اللوغاريتمات. بدون اللوغاريتمات لم نكن لنتمكن من صنع الحاسب الآلي الذي غير وجه الحضارة.

وغير الخوارزمي هناك ابن سينا [٣٩] وأبو بكر الرازي [٤٠]وجابر بن حيان [٤١]، وغيرهم من العلماء الذين ساهموا في الحضارة التي نتمتع بها الآن.

بعد الحرب العالمية الأولى قام بدراسة الفيزياء والرياضيات وبدأ دراسة اللاهوت لكي يصبح قسيسًا. وحصل عام ١٩٢٠م على دكتوراه الفلسفة. وعين قسيسا للكنيسة الكاثوليكية عام ١٩٢٣.

[٣٨] أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨١ - ٨٤٧م): أحد أبرز علماء الرياضيات والفلك والجغرافيا المسلمين. ساهمت أعماله بدور كبير في تقدم الرياضيات في عصره، من أهم مؤلفاته كتاب «المختصر في حساب الجبر والمقابلة». وهو المؤسس لعلم الجبر الذي أطلق عليه بالإنجليزية «Algebra»، وكذا علم اللوغاريتمات «Algorithms» الذي سمي بذلك نسبة إليه. وهو أول من نقل علم الأرقام إلى الغرب.

[٣٩]أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧م): لُقب بأمير الأطباء وأبو الطب الحديث من قِبَل الغرب في العصور الوسطى، ألف قرابة ٢٠٠ كتاب في العديد من المجالات، من أبرزها كتاب «القانون في الطب» الذي استُخدم كمرجع رئيسي في علم الطب على مدى سبعة قرون، وظل يُدَرَّس في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر.

[٤٠] (أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٤ - ٩٢٣م): أحد أبرز العلماء في عصره. درس الرياضيات والطب والفلسفة والفلك والكيمياء والمنطق والأدب، وهو أول من ابتكر خيوط الجراحة وصنع المراهم. وقد ترجم العديد من كتبه إلى اللغات الأوروبية، واعتمدت عليها جامعات أوروبا، وظلت مرجعها الأول في الطب حتى القرن السابع عشر، مثل كتابه «الحاوي في علم التداوي» والذي ترجم إلى اللاتينية في خمسة وعشرين مجلدًا. كما ترجم كتابي «الجدري والحصبة» و«المنصوري» إلى الفرنسية والألمانية. وظلت تلك المؤلفات من المراجع الأساسية لدراسة

وسأختتم كلامي بما قاله العالم الفرنسي بيير كوري [٤٢]، الذي قال: "تمكنا من تقسيم الذرة بالاستعانة بثلاثين كتابًا بقيت لنا من الحضارة الأندلسية، ولو لم تحرق كتب المسلمين، لكنَّا اليوم نتنقل بين المجرات".

ومرة أخرى ارتفع صوت التصفيق في الاستوديو وارتفعت الأيادي كلٌ يرغب في السؤال، إلا أن يوسف وبناءً على طلب المخرج، قال:

– سنتوقف قليلًا على أن نستكمل الحلقة بعد فاصل قصير.

***

الطب في أوروبا، ولا تزال جامعة «برينستون» الأمريكية تحتفظ بكتبه في قاعة من أفخم قاعاتها، والتي أُطلق عليها اسمه اعترافًا بفضله على علم الطب في العالم أجمع.

[٤١] جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي (٧٢١ - ٨١٥م): واحدٌ من ألمع اسماء العلماء العرب والمسلمين، ينسب له الفضل في مجموعة من الاختراعات والإنجازات العظيمة، وعلى رأسها اختراع حمض الكبريتيك والهيدروكلوريك والنتريك، إلى جانب اختراع حبر مضيء يساعد على قراءة المخطوطات والرسائل في الظلام ونوع من الورق المضاد للاحتراق. وهو أول من استحضر ماء الذهب. وقال عنه الفيلسوف الإنكليزي فرانسيس بيكون: إن جابر بن حيّان هو أول من علّم الكيمياء للعالم، فهو أبو الكيمياء، وقال عنه العالم الكيميائي الفرنسي مارسيلان بيرتيلو في كتابه «كيمياء القرون الوسطى»: "إن لجابر بن حيان في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق".

[٤٢] بيير كوري - Pierre Curie (١٨٥٩ - ١٩٠٦م): فيزيائي فرنسي، نال جائزة نوبل في الفيزياء مع زوجته ماري سكوودوفسكا كوري وهنري بيكريل، تقديرًا للخدمات الاستثنائية التي قدموها من خلال أبحاثهم المشتركة حول الظواهر الإشعاعية.

نظرت ريم لوالدتها التي ظهر على ملامحها الإعجاب بأسلوب يوسف في الحوار والرد على الأسئلة بكل هدوء، حرَّكت كفيها في تعجب وهي تسأل ريم:

- ما الذي حدث للناس؟! هل ألحد الجميع؟ لكن في الحقيقة كانت ردود يوسف جيدة.

صمتت قليلًا وهي تتفحص ابنتها التي بدت شاردةً ثم ما لبثت أن أردفت قائلةً: لماذا لا تكلميه؟

انتبهت ريم لسؤال أمها وسألتها في دهشةٍ: من تقصدين... يوسف؟!

رفعت نسرين إحدى حاجبيها وارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ جانبيةٌ قبل أن تقول:

- بالتأكيد يوسف، ومن غيره.

حرَّكت رأسها في أسى قبل أن تطلق زفرةً حارةً وهي تقول:

- وكيف ذلك؟ هل نسيتِ ما فعله به أبي، وكيف كسر خاطره وهو ينهي معه المقابلة في بيتنا؟ بأي وجه سأكلمه؟ لن ألومه إذا ما أغلق الهاتف في وجهي ورفض مكالمتي.

حتى وإن تحدَّث معي ماذا سأقول له؟ وبنبرة ساخرة أردفت:

- هل أقول له كيف حالك يا يوسف؟ أنا ريم لقد تطلقت ومعي طفلة.

نظرت لها أمها في حنانٍ وهي تقول:

– بالتأكيد لا، ولكن كبداية يمكنك الاتصال بالبرنامج وطرح أيّ سؤال وتنتظري رد فعله، ولكن ماذا ستسألين؟

قَدحت زِناد فكرها ثم ما لبثت أن تهللت أسايرها قائلةً:

– يمكنك أن تحدثيه بما جال في خاطرك أمس بعد وفاة سارة، وأظن أنه سيكون مناسبًا مع موضوع الحلقة.

***

ما أن انتهى الفاصل الإعلاني حتى رحب يوسف مجددًا بمشاهديه وضيوفه بالأستوديو وأشار إلى إحدى السيدات التي كانت تلحُّ في طرح سؤالها، عرَّفت نفسها باسم هدى، وبدا عليها التأثر وبصوتٍ مبحوحٍ قالت:

– لقد توفي ابني ولم يتجاوز عمره العشرين عامًا، وشأنه شأن معظم الشباب في سنه، لم يكن مواظبًا على الصلاة.

بدأت الدموع تنساب على وجنتيها وبصوتٍ متهدجٍ أردفت:

– أعرف أنه كان سيلتزم ولكنه لم يأخذ فرصته، بينما هناك من يعيش حتى يبلغ الثمانين وربما أكثر، فيأخذ فرصته كاملة، أين العدل هنا؟ كيف سيحاسبهما الله؟ قالتها وجلست مرة أخرى وهي تجفف دموعها.

نظر إليها يوسف مشفقًا وهو يقول:

- خالص عزائي لك في ولدك، أتفَّهم مشاعرك.

تأكدي أن الله غفور رحيم، فهو الرحمن الذي سبقت رحمته غضبه، بالنسبة لسؤالك سأضرب لك مثالًا، إذا كنتِ معلمةً بإحدى المدارس، وتُدرسين لفصلين من الطلاب، ويحين بعد أسبوع موعد الاختبار الشفوي الذي ستختبرين به طلابك.

قمتِ بمراجعة الموضوعات كاملة مع الفصل الأول قبل موعد الاختبار بأسبوع، أما الفصل الثاني فقد كان أقل حظًا، لم يكن لديك وقت له وبالكاد راجعتِ معه الموضوعات ليلة الاختبار ولم يكن لديهم الفرصة للاستذكار.

السؤال لكِ، هل ستختبرين طلاب الفصلين بأسئلة بدرجة الصعوبة ذاتها؟ هل سيكون تقييمك للإجابات لكلا الفصلين واحدًا؟

أجابته: بالتأكيد لا، فهذا ظلم للفصل الثاني فهو لم يأخذ فرصته كاملة.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه وهو يقول:

– إذا كان هذا الحال معك وطلابك، فما بالك بالله!؟ ظُني بالله خيرًا، فهو القائل: أنا عند حسن ظن عبدي بي[٤٣].

ما إن قال ذلك، حتى أبلغه المخرج أنَّ وقت البرنامج قد قارب على الانتهاء، وأن الوقت المتاح يكفي بالكاد لسؤال السيدة التي على الهاتف.

رحَّب يوسف بالمتصلة وطلب أن تلقي سؤالها بعد أن تُقدم بنفسها.

***

تعلقت أنظار ريم بشاشة التلفاز وتسارعت نبضات قلبها وهي تسمع صوت يوسف عبر الهاتف الذي ألصقته بأذنها، ترددت قليلًا وهي تنظر لوالدتها التي أخذت تشير لها مشجعة، ألقت ريم التحية، وقبل أن تنطق اسمها، كانت ملامح وجه يوسف تتغير وهو يحاول الانصات لهذا الصوت الذي يعرفه جيدًا.

ما إن سمع اسمها حتى تضاربت المشاعر داخله، كانت مزيجًا من الفرح واللهفة والشوق و...والألم، كادت قسمات وجهه تفضح ما يحاول إخفاءه، تسارعت نبضات قلبه وهو يحاول جاهدًا ألا يتلفظ باسمها، كان كمن يخشى إذا

---

[٤٣] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَقُولُ اللهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً. صحيح مسلم رقم [٢٦٧٥].

ما نطقه أن يقفز قلبه خارجًا من صدره وهو يردد اسمها في كل نبضةٍ من نبضاته، تمالك نفسه وهو يقول:

- تفضلي ما هو سؤالك؟

أطلقت تنهيدةً قبل أن تقول:

- توفيت أمس طفلة في الثامنة من عمرها نتيجة إصابتها بمرض السرطان، هذه الطفلة مسيحية، ما الذنب الذي اقترفته هذه الصغيرة لتتعذب قبل أن تموت؟ إن كان الابتلاء هو اختبار من الله لدخول الجنة، فلماذا ابتلاها الله في هذه السن الصغيرة، وإن كان الابتلاء لوالديها فما الغرض منه، فمصيرهم هو النار؟

لمعت عينا يوسف وهو يُحدث نفسه، نعم هي ريم التي عرفها وأحبها، لقد جاهد نفسه كثيرًا لكي ينساها بعدما حدث، لقد ظنَّ لسنوات أنه قد نسيها إلا أن قلبه كان له رأي آخر، فما إن سمع صوتها حتى كادت دقات قلبه أن تنافس دقات طبول تايكو اليابانية[٤٤].

تنحنح قبل أن يستعيد تركيزه ويقول:

[٤٤] طبول تايكو اليابانية: وهي آلة قد تبدو بسيطة تعبر فقط من خلال الإيقاع دون ألحان ولكنها في الحقيقة آلة عميقة في القدرة على التعبير. تخطف قلوب وأجساد السامعين بدقاتها التي تهز الروح والنفس.

– لا أحد يمكنه أن يجزم من سيدخل النار، إلا من وردوا في القرآن والسنة مثل؛ فرعون وقومه [٤٥]، وزوجتا النبيين نوح ولوط[٤٦]، وغيرهم ممن أخبرنا الله عنهم. فلا أحد يمكنه أن يُجزم من سيدخل الجنة ومن سيؤول مصيره إلى النار، فإن ذلك تألِّي على الله، فدخول الجنة أو النار بيده وحده سبحانه.

وهناك القصة المعروفة لعاهرة سقت كلبًا فأدخلها الله الجنة[٤٧].

فبنظرتنا نحن، هذه السيدة مصيرها إلى النار، لكن الله له رأي آخر فهو ينظر إلى القلوب بغض النظر عن اللون والعرق وغيرها.

أما بالنسبة لأتباع الديانات الأخرى، فإن الله ﷻ يخبر عن أهل هذه الأديان المختلفة؛ المؤمنين واليهود والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إنه سبحانه يحكم بينهم بالعدل يوم القيامة، فيدخل من آمن به الجنة ومن كفر النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، عليم بسرائرهم وضمائرهم [٤٨،٤٩].

---

[٤٥] {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ} سورة هود، الآية [٩٨].

[٤٦] {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْءًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} سورة التحريم، أية [١٠].

[٤٧] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ برَكِيَّةٍ، كادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِن بَغايا بَنِي إسْرائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَها فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لها بهِ». صحيح البخاري [٣٤٦٧].

[٤٨] {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} سورة الحج، الآية [١٧].

[٤٩] تفسير ابن كثير

أما لماذا ابتلى الله تلك الطفلة في هذه السن، وهل سيدخل والداها الجنة أم النار؟ فإن هذا ليس من شأني، ولماذا أشغل نفسي بسؤال كهذا؟.

لكن دعيني أسألك، ما الذي يجعل شخصًا يفكر في اعتناق الإسلام مع كل ما يبثه الإعلام من حوادث قتل وإرهاب تقوم به الجماعات المتطرفة؟ إنهم يبثُّون هذا لا لغرض إلا لتشويه صورة الإسلام.

هل فعلنا كمسلمين ما يغير تلك الصورة؟ هل تحلينا بحسن الخلق والأمانة والصدق وغيرها من الصفات التي أمرنا بها الإسلام في تعاملاتنا؟ انظري إلى سلوك البعض منا، لقد صار الغش في البيع والشراء يُسمى شطارة هذه الأيام.

نحن لم نقدِّم لديننا ما يُغري غيرنا بالتفكير فيه، بل إن سلوك البعض منا هو أسوأ دعاية للإسلام.

الإسلام ليس فقط الصلاة والصوم والعبادات، لكنه أيضًا المعاملات، لقد انتشر الإسلام في دول جنوب شرق آسيا بعدما لمسوا الصدق والأمانة في تعاملهم مع تجار المسلمين، فأين نحن من ذلك؟

كرَّر المخرج إشارته ليوسف لينهي المكالمة والبرنامج، وقد فعل يوسف ذلك على مضضٍ، قائلًا:

– أعتقد أن هذه الإجابة على سؤالك.

وجه كلامه لجمهوره متابعًا: لابد أن نشغل أنفسنا بمصائرنا نحن، ولنسأل أنفسنا دائمًا، هل أفعالي تلك ستقودني إلى الجنة أم النار؟

ما إن انتهت المكالمة حتى التقطت ريم أنفاسها ونظرت لأمها وارتسمت ابتسامة طفولية على وجهها، لقد شعرت وكأن عقارب الزمن قد عادت للوراء، كأنها لم تفترق عن يوسف قط، بالتأكيد كانت تخاف من ردة فعله إلا أن رد فعله قد أدهشها.

لقد فضحته تعبيرات وجهه التي لم تغب عنها وهي تحدِّق في الشاشة طوال المكالمة، لقد حاول أن يبدو متماسكًا إلا أنها تعرفه جيدًا وتحفظ قسمات وجهه عن ظهر قلب، كان ما حدث يعني شيئًا واحدًا وهو أنه ما يزال يكن لها المشاعر.

انتزعها من أفكارها سُعال ابنتها التي زادت حدته مع احتقان وجهها وهي تبدو كأنها تبذل جهدًا لتتنفس، راعها ما تراه فاندفعت في سرعة إلى خارج غرفتها وهي تصرخ منادية الطبيب، هرعت معها تهاني إلى الغرفة بينما بقيت زميلتها لتقوم باستدعاء الطبيب.

بدت ريم منهارةً واغرورقت عيناها بالدموع وهي تسأل تهاني بصوت متهدجٍ عن ابنتها، تجاهلتها وهي تراجع المؤشرات الحيوية لحلا وقراءات الأكسجين في

الدم، فوجدت به انخفاضًا ملحوظًا، فما كان منها إلا أن قامت بوضع قناع الأكسجين على وجه حلا.

لم تكن نسرين بحالٍ أحسن من ريم، إلا أنها حاولت أن تتماسك وهي تحيط كتف ابنتها بذراعها وتربِّت عليها لتطمئنها، ما إن بدأ الأكسجين يسري في رئتي حلا حتى انتظم تنفسها وبدأ لون وجهها يعود إلى طبيعته، فتنفسوا جميعًا الصعداء.

لحظات قليلة وكان الطبيب يقف بالغرفة يطمئنهما على حلا بقوله إنه راجع الفحوصات الأخيرة وأن كل شيء على ما يرام إلا أنه يرى أن الإسراع بإجراء العملية هو بالتأكيد في صالح حلا، وأقرب موعدٍ متاحٍ هو بعد غدٍ وذلك بعد استشارة طبيب التخدير الذي سيتواجد بعد لحظات.

طلب منهما استكمال الأوراق ومنها بطبيعة الحال موافقة والد حلا، كإجراءات شكلية متَّبعة قبل الخضوع للجراحة، وقبل أن يغادر الغرفة وصل طبيب التخدير ومن ثم تحدثا سويًا قبل أن يُراجع نتائج الفحوصات، ثم سأل زميله عمَّا إذا كانت حلا تعاني مشكلة في التنفس، بعدما لاحظ وجود قناع الأكسجين على وجهها.

هزَّ الطبيب رأسه نافيًا وعلَّل وجود القناع بأنه أمرٌ طارئ لا يستدعي القلق، وأن الحالة تحت المتابعة المستمرة وهو لا يعتقد أن هذه المشكلة ستستمر حتى موعد إجراء العملية.

ما إن انصرف الطبيبان حتى جلست ريم ووالدتها بجوار سرير حلا التي استغرقت في النوم بعد أن قامت تهاني بإعطائها بعضًا من المسكنات بناءً على أوامر الطبيب.

وضعت نسرين كفها على فخذ ريم وهي تنصحها بضرورة الاتصال بوالد حلا للحصول على موافقته قبل بدء العملية.

زفرت ريم في ضيق قبل أن تطلب من أمها أن تقوم هي بالاتصال به، فهي حتمًا لا ترغب في سماع صوته، علاوة على أنها تعرف أنه لا يبالي بحلا، فهو لم يكلف نفسه بالاطمئنان على ابنته منذ دخولها المستشفى، فهو يكتفى بزوجته الأخرى وابنه منها، تنهَّدت نسرين قبل أن تخبرها بأنها ستقوم بالاتصال به ليحضر غدًا على أقصى تقدير.

أشارت نسرين إلى طعام الغذاء الذي أحضرته العاملة منذ قليل قائلة:

– لابد أن تأكلي شيئًا يا ريم، إن وجهك يبدو شاحبًا، حرَّكت ريم رأسها نفيًا وتحججت بأنها لا تشعر بالجوع الآن، ربما ستتناول بعضًا منه بعد قليل.

التفت كلاهما تجاه الباب عندما سمعا صوت طرقات خفيفة ثم ما لبث أن فُتِح ودلفت منه سعديَّة حاملة في يدها كيسًا به بعض الفاكهة، تهللت أساريرهما عند رؤيتها ورحبا بها في حرارة، وسألتها ريم قائلة:

- كيف عرفتِ عنوان المستشفى؟

عَلت ابتسامةٌ عريضة وجه سعديَّة وهي تقول:

- أن السيدة نسرين قد أخبرتها به بعدما اتصلت بها مساء أمس لتطمئن منها عليها وعلى حلا.

***

بعد أن أنهى يوسف برنامجه اتجه إلى غرفة التحكم وتحصَّل على رقم هاتف ريم بدعوى أنها زميلة له من أيام الجامعة ولم يتحدث إليها منذ زمن.

أمسك بالورقة المدوَّن عليها الرقم ونظر إليها مطولًا وبدت الحيرة على وجهه والعديد من الأسئلة تدور في عقله، ماذا يفعل الآن؟ هل يتصل بها؟ وكيف ستكون ردة فعلها؟ بالتأكيد لن ترفض التحدث معه، فهي التي بادرت بالاتصال على أيَّة حال.

هل لا تزال متزوجة، بالطبع هو يعرف القليل عنها من أصدقاء الجامعة، لكنه توقف عن متابعة أخبارها منذ فترة، واختار أن يمضي في حياته إلا أنه كان واهمًا، فهو لا يزال يعشقها، لا يمكن لغيرها أن تشغل حيزًا من حجرات قلبه.

طوى الورقة ووضعها في جيبه، واستقل سيارته متجهًا لمنزله، ما إن وصل حتى أخذ حمامًا دافئًا ثم أعد لنفسه كوبًا من الشاي بالنعناع الطازج كعادته، واسترخى في مقعده بحجرة المكتب ثم أمسك بالورقة المدوَّن عليها الرقم واضعًا إياها أمامه على المكتب.

ارتشف بعضًا من الشاي وأطرق برأسه مفكرًا، مضى بعض الوقت إلى أن بدا كمن حزم أمره، أمسك هاتفه المحمول وقام بالاتصال.

***

ارتفع رنين هاتف ريم فنظرت إلى شاشته فوجدته رقمًا غير مسجل لديها، تجاهلت الهاتف ووضعته على الطاولة أمامها، سألتها أمها عن هوية المتصل فأجابتها بأنه رقم غريب، ربما كانت إحدى شركات التطوير العقاري، فهم كثيرًا ما يزعجونها باتصالاتهم.

تجاذبت ريم أطراف الحديث مع أمها وسعديَّة، وسألت الأخيرة ماذا ستفعل مع طليقها؟ أجابتها سعديَّة بأنها لا تدري ماذا ستفعل وخاصة بعد سؤال إمام مسجد القرية الذي كان رأيه أنه لا يميل إلى الخُلع.

سألتها ريم إن كان هذا الإمام مؤهل للفتوى؟ أجابتها بأنها لا تعرف، هو إمامٌ للمسجد منذ فترة بالإضافة لعمله بمكتب البريد.

أشارت عليها ريم بأن تخلعه فهي لا تحتاج وجوده في حياتها، فالبعد عنه أفضل لها وأولادها، وأن طارق المحامي على استعداد أن يساعدها في ذلك.

مضى الوقت طويلًا وبدأ الليل يسدل أستاره، فاستأذنت سعديَّة في الانصراف، فما كان من نسرين إلا أن نهضت بدورها وأخبرت ريم بأنها ستغادر الآن لتصطحب سعديَّة معها في سيارتها إلى أقرب موقف سيارات لتعود لبلدتها، على أن تعود في الصباح.

استغرقت حلا في النوم وبقيت ريم مستيقظة بجوار فراشها تراقبها، شردت بأفكارها عندما تذكرت اتصالها بيوسف، أطلقت زفرةً حارةً من أعماقها وهي تتذكر والدها وتشير له بأصابع الاتهام في سريرتها بأنه كان سببًا في إبعاد يوسف عنها وزواجها من محمود.

وتمنت في أعماقها أن يعود بها الزمن لتقف بكل قوةٍ في وجه أبيها وتصرُّ على رفضها لمحمود، إلا أنها عادت تنظر إلى ابنتها وتقنع نفسها بأنه لم تكن لترزق بحلا لولا زواجها من محمود، فهي الحسنة الوحيدة في هذا الزواج.

تذكرت محمود وتناقضاته، فعلى الرغم من حرصه على تأدية الفرائض، إلا أنه لم يكن يمانع في الحصول على هدايا عينية كانت أقرب للرشوة منها إلى الهدية، بالرغم من تبريراته الواهية لها، تذكرت نزواته وزواجه من أخرى وهي على ذمته

بحجة أن ذلك حقه الشرعي، هذه الزيجة التي كانت بالنسبة لها القشة التي قصمت ظهر البعير والتي على أثرها سارعت بطلب الطلاق.

تذكرت كيف كان يأتي لها مرات عدة، يطالبها بحقه الشرعي فتعتذر لكونها مجهدة، فيذكرها بالحديث الشريف الذي يقول إنها إذا امتنعت عن زوجها تلعنها الملائكة حتى تصبح[٥٠]، تذكرت ما كانت تفعله بعد أن يقضي حاجته منها، وكيف كانت تدخل إلى الحمام لتختلي بنفسها وتبكي من فرط إحساسها بالقهر.

تساءَلَت هل هذا هو الإسلام؟ هل هذه تعاليمه حقًا؟ وبينما هي كذلك إذ ارتفع رنين هاتفها، نظرت لشاشته لتجد أنه نفس الرقم الذي اتصل سابقًا، زفرت في ضيق ثم ضغطت على زر قبول الاتصال.

أتاها صوت يوسف عبر الهاتف وهو يقول: كيف حالك يا ريم؟

ما إن سمعت صوته حتى نهضت من مقعدها لا تدري ما تفعل، فإذ به يقول: ريم أما زلت هنا؟

تنهَّدت ثم قالت: يوسف، كيف حالك؟

---

[٥٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عليها لَعَنَتْهَا الملائكة حتى تصبح». صحيح البخاري [٣٢٣٧]، صحيح مسلم [١٤٣٦].

تجاذبا أطراف الحديث وشعرت كأنها عادت إلى الجامعة من جديد، ظلَّت تقطع الحجرة جيئة وذهابًا وهي تحكي له تفاصيل ما حدث في حياتها، سألها عن اسم المستشفى، في البداية رفضت إلا أنها رضخت لطلبه في النهاية.

أخبرها يوسف عن حياته، كاد قلبها يرقص طربًا عندما علمت أنه لم يتزوج حتى الآن، مضى الوقت سريعًا وهما يتحادثان وكأنما يريدان تعويض ما فاتهما، وبينما هي كذلك إذ أخذت حلا تسعل بشدة وتتأوه ألمًا، وفغرت فاها تجاهد لتلتقط أنفاسها وكأنما لا تجد هواءً تتنفسه.

أسرعت ريم بإنهاء المكالمة وفتحت الباب وصاحت في طاقم التمريض الذين حضروا على وجه السرعة، وقاموا بفحص حلا وإعادة القناع إلى وجهها ولكن لم يتحسن الأمر كثيرًا وحضر الطبيب على عجل وأشار بضرورة نقلها على وجه السرعة إلى غرفة الرعاية ووضعها على جهاز التنفس الصناعي.

كان من الواضح أن حالة حلا تتدهور بسرعة، انهارت ريم تمامًا بعدما سمعت توجيهات الطبيب بضرورة أن توضع ابنتها على جهاز التنفس الصناعي، ما هي إلا دقائق معدودة كان فيها طاقم التمريض يقوم بها في وسعه لسرعة نقل حلا لغرفة الرعاية.

سارعت ريم بالاتصال بوالدتها وبصوتٍ متهدجٍ أبلغتها بما حدث، هبت نسرين من فراشها وسارعت بتغيير ملابسها واستقلت سيارتها إلى المستشفى، ما

أن وصلت حتى هرولت إلى الرعاية لتجد ابنتها هناك في حالة يرثى لها، ما إن رأتها ريم حتى ارتمت في أحضانها وأجهشت بالبكاء.

ظلا أمام الرعاية لساعات، تسللت أشعة الشمس على استحياء من نافذة بجوارهما معلنة شروقها كعادتها.

طمأنهما طاقم التمريض على حلا وأن الأمور قد استقرت ولا جدوى من وجودهما أمام الرعاية، فلن يُسمح لهما بالدخول إلا الساعة الواحدة ظهرًا في توقيت الزيارة.

بعينين حمراوين مغرورقتين بالدموع استأذنتها ريم بأن تلقي نظرة خاطفة على ابنتها ليطمئن قلبها، في البداية رفضت الممرضة إلا أنها أشفقت عليها في النهاية وسمحت لها بالدخول خلسة، حتى لا تتعرض للعقوبة إذا ما رآها الطبيب بالداخل.

ألقت نظرة سريعة على ابنتها وغادرت بعدها قسم الرعاية إلى غرفتها بصحبة والدتها، وبمجرد دخولهما الغرفة توضأت ريم وبسطت سجادة الصلاة وأخذت تصلي وتدعو وهي تجهش بالبكاء.

ما إن فرغت من صلاتها حتى أشارت لها نسرين بأن تترك السجادة لتصلي بدورها، فرغت نسرين من صلاتها والتفتت إلى ابنتها لتجدها قد نامت على

كرسيها بعد أن بلغ منها التعب مبلغه، جلست نسرين إلى المقعد المجاور وحذت حذوها.

لا تدري ريم كم مرَّ من الوقت إلى أن أفاقت من غفوتها على صوت طرقات على الباب، فتحت الباب لتجد شابًا يحمل في يده زهورًا وعلبة من الشيكولاتة، سألها إن كانت هي السيدة ريم؟ أومأت برأسها إيجابًا، سلَّمها الزهور والشيكولاتة وغادر مسرعًا.

قرأت ريم البطاقة المرفقة لتجد أنها تمنيات من المرسل بالشفاء العاجل لابنتها، وزُيلت البطاقة بتوقيع يوسف مالك، وضعتها ريم على الطاولة ونظرت إلى ساعتها لتجد أنها قاربت على الثانية عشر فأيقظت أمها، وما هي إلا دقائق قليلة حتى كانا يقفان أمام غرفة الرعاية في انتظار بدء الزيارة.

لحظات وكانا بجوار حلا، كانت مستغرقة في النوم وأنبوب جهاز التنفس يدخل في فمها، أخذت ريم تهز رأسها في أسى واغرورقت عيناها بالدموع وهي تتفحص ابنتها، ألقت نسرين نظرة على الشاشة التي تُظهر قراءات الأجهزة المتصلة بجسد حلا.

تسرب إليها القلق بعدما لاحظت أن ضغط الدم منخفض قليلًا، لم تشأ أن تثير قلق ريم، فتوجهت لطبيب الرعاية تسأله، نظر إليها مطولًا قبل أن يقول:

- إنهم يبذلون ما في وسعهم إلا أن الحالة حرجة، وأملهم في الله كبير.

وقعت الكلمات على نسرين كالصاعقة، سألته ماذا يعني بقوله هذا؟ من المفترض أن حلا ستخضع لجراحة باكر وستكون أفضل حالًا، أخبرها أنه إذا مرت الساعات القادمة على خير فستُكتَب لها النجاة، ثم تركها ليتابع باقي المرضى.

لم تعرف كيف تتصرف، هل تخبر ريم بما قاله الطبيب؟ لكن هناك احتمال أن يكون تشخيص الطبيب خاطئًا، وأن حلا ستكون بخير.

كانت تعرف في قرارة نفسها أن كلام الطبيب صحيح، لقد توفي زوجها على جهاز تنفس مماثل، وعرفت عندها أن نسب الشفاء قليلة.

انتهى وقت الزيارة وعادت ريم ونسرين لغرفتهما، أخبرت أمها أنها لاحظت وقوفها مع الطبيب، وسألتها عمَّا قاله وإن كان طمأنها، فرسمت ابتسامة مصطنعة على شفتيها وهي تخبرها بأن كل شيء على ما يرام، وأنها ستصلى الظهر وتدعو الله عسى أن يتقبل منها، وحذت ريم حذوها.

بعد أن فرغا من صلاتهما أخبرتها نسرين بأنها ستتصل بمحمود والد حلا، فمن الواجب أن يأتي للاطمئنان على ابنته، فهي كانت ستتصل به على أية حال ليوقع أوراق العملية.

نظرت إليها ريم وساورها القلق، وسألتها إن كان هناك ما تخفيه عنها؟ صمتت نسرين للحظات قبل أن تقول لريم ما قاله الطبيب وأنه ليس هناك إلا الدعاء.

ما إن سمعت ريم بذلك حتى هرولت مغادرة لتذهب إلى حلا، وفي قرارة نفسها لا يمكن أن يصيب حلا مكروهٌ، فقد دعت الله كثيرًا ليشفيها، لم تقصر يومًا في صلاة أو صيام، كانت تقيم الليل وتدعو لابنتها بالشفاء، سوف تشفى.. فهي موقنة بذلك.

ومن خلفها كانت نسرين تحاول اللحاق بها، وما إن لحقت بها حتى وجدتها أمام الرعاية تحاول الدخول عنوةً وأمن المستشفى يمنعها من ذلك، فقامت أمها بتهدئتها وأجلستها على أحد المقاعد فيما قامت هي بالاتصال بمحمود لتبلغه بما حدث.

لم يمضِ وقت طويل حتى كان محمود واقفًا بجوار نسرين يسألها إن كان هناك جديد في حالة حلا؟ هزت رأسه نفيًا، طلب محمود مقابلة طبيب الرعاية لسؤاله بنفسه عن حالة ابنته، تأخر الطبيب في الخروج من الغرفة فيما هرولت إحدى الممرضات خارجة منها.

نظرت ريم عبر فرجة الباب في محاولة منها لتطمئن على ابنتها، فوجدت الطبيب والممرضات حولها يحاولون بجهاز إنعاش القلب، نادت على ابنتها في

لوعة فالتفت الطبيب إليها ونظر إلى الأرض في حسرة وقد كان صمته أبلغ من أي كلام.

أطلقت ريم صرخة ردَّدتها جدران المستشفى قبل أن تسقط فاقدة الوعي فيما أخذت نسرين تنتحب وتنادي على حفيدتها دون جدوى، تمالك محمود أعصابه وهو يتلقى خبر وفاة ابنته.

***

أسبوعٌ مضى على وفاة حلا، بدت ريم هزيلة فهي لم تذق إلا قليلًا من الطعام وبعد إلحاح من والدتها، كانت نسرين قد أصرت أن تنتقل ريم للعيش معها في الفترة الحالية، أغلقت ريم هاتفها وقبعت في غرفتها، ولم تقابل أيًا من أصدقائها أو زملائها في العمل ممن حضروا لتقديم واجب العزاء.

كانت تجلس بمفردها في غرفتها والحزن يعتصر قلبها وتفكر، ما الذي اقترفته حلا لتموت في هذه السن الصغيرة؟ إن هذا عقابٌ من الله لذنب هي اقترفته، فما ذنب ابنتها؟ لقد دعت الله كثيرًا ولم يستجب.

أخذ عقلها يستعيد صورًا لثورة ٣٠ يونيو والهرج الذي ساد الشوارع، هي لن تنسى ذلك الفيديو لرجلٍ ملتحٍ يسير وسط مظاهرة ثم يستل مسدسًا من طيات ملابسه ويطلق النار على ظهر أحدهم ثم يصيح محاولًا إلصاق التهمة في الشرطة.

لن تنسى التهديدات التي أطلقها من ينتمون للتيارات الدينية بإشعال مصر، منهم من كانوا يطلون عليها عبر الفضائيات كدعاة للإسلام، فإذ بهم فجأة يظهرون على حقيقتهم.

لن تنسى زوجها المتدين؛ كذبه وغشه وخداعه وتبرير ذلك بمبررات واهية متخفيًا في لحيته التي أطلقها وعلامة السجود التي تتوسط جبهته، تذكرت إذلاله وإجباره لها على الطاعة حتى لا تلقى في نار جهنم.

جالت الأفكار في خاطرها، فتذكرت أباها الذي لم يختلف كثيرًا عن زوجها، وتساءلت هل هذا هو الدين حقًا؟ هل هذا هو ما أمرنا به الله؟.

ما إن ذكرت الله حتى مطَّت شفتيها قائلة: الله!! أين هو؟!.

لقد دعوته كثيرًا ليشفي حلا، وما هي النتيجة؟ هل هو موجود حقًا؟.

قالتها ونهضت واقفةً ثم ما لبثت أن توجهت للحمام لتأخذ حمامًا دافئًا تستعيد معه نشاطها، فهي في حاجة للنزول إلى الشارع لتمشي في الهواء الطلق.

انتهت من حمامها ومن ثم ارتدت ملابسها وخرجت إلى الصالة لتجد أمها قد فرغت للتو من صلاتها، تهللت أسارير أمها عندما رأتها على هذه الحالة، نظرت ريم لها وسألتها عما تفعل؟

أجابتها بأنها كانت تصلى العصر، ثم سألتها:

– هل ستخرجين؟ أومأت برأسها واتجهت ناحية باب الشقة لتفتحه.

فنادتها أمها، قائلة: ريم لقد نسيت ارتداء حجابك.

ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وهي تقول:

– لا لم أنسَ، لن ألبسه بعد اليوم.

حملت نظرتها الكثير من التحدي وهي تقول:

– إن حياتنا هي عبارة عن أكذوبة، ولقد اكتفيت منها.

نظرت لها أمها في دهشة وهي تقول: عن أية أكذوبة تتحدثين؟

لم تجب سؤالها، إنما سألتها: لمن تصلين؟.

ضحكت ساخرة وهي تشير لأعلى وتابعت:

– لا يوجد أحد هناك، لقد اكتفيت من هذا الهراء، قالتها وغادرت وأغلقت الباب خلفها في عنف، تاركة أمها مذهولة لا تصدق ما سمعته أذناها.

الفصل الثاني

وصل يوسف إلى كلية الإعلام تلبيةً لدعوة الدكتور جمال الذي طلب منه الحضور لاستكمال الندوة السابقة، وقبل أن يترجَّل من سيارته، أمسك بهاتفه المحمول محاولًا الاتصال بريم إلا أن هاتفها كان مغلقًا، زفر في ضيقٍ وهو يضع الهاتف في جيبه، لقد سئِم سماع تلك الرسالة الآلية التي ترددت على أسماعه عدة مرات يوميًا طيلة الأسبوع الماضي.

لقد حاول كثيرًا الاتصال بها دون جدوى، وتساءل هل هي بخير؟ إن قلبه ينبئُه أنها بخير، ولكن هل قلبه يخبره الصدق أم يطمئنه فحسب؟ أطرق برأسه مفكرًا، لقد ذكرت له أن ابنتها ستخضع لعملية جراحية، هل أصابها مكروه؟ نظر إلى ساعته، لقد تأخر بعض الوقت، أخذ شهيقًا عميقًا في محاولةٍ منه لتصفية ذهنه قبل أن يغادر سيارته.

لحظات وكان يجلس في القاعة بجوار الدكتور جمال الذي قام بالترحيب به والثناء على ندوة الأسبوع الماضي التي كان لها صدى طيب في أروقة الكلية.

شكر يوسف الدكتور جمال وجميع الحاضرين من الطلبة والأساتذة قبل أن يقول:

– لقد لمست في الندوة السابقة أن بعض الزملاء لديهم تساؤلات لم يسعفني الوقت لسماعها والإجابة عنها، لذا آثرت أن تكون هذه ندوة مفتوحة أحاول فيها أن أجيب على أسئلتكم واستفساراتكم ما استطعت.

لفت نظره خالد الذي يجلس في الصف الأول، صمت قليلًا قبل أن يستطرد قائلًا:

– إلا أنني أرجو من الجميع التزام تعليمات مدير الندوة الدكتور جمال، حتى يتسنى لنا جميعًا أن نُحقق الهدف المرجو منها.

ارتفعت الأيدي في القاعة كلٌ يريد أن يلقي سؤاله، أشار الدكتور جمال إلى إحدى الطالبات التي نهضت من مقعدها وهي تشكره على إتاحة الفرصة لطرح سؤالها، قدَّمت نفسها باسم علياء قبل أن تقول:

– لقد تعلَّمنا منذ طفولتنا أن الله لا يأتي إلا بما هو خير، وأنه أرحم بنا من الأم على ولدِها [٥١]، فلماذا خلق الشر؟ لماذا خلق الفقر والمرض؟ لماذا يموت العديد من

---

[٥١] عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ رسول الله ﷺ بسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إذَا وجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْيِ أخَذَتْهُ، فألْصَقَتْهُ ببَطْنِهَا وأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رسول الله ﷺ: أتُرَوْنَ هذِه طَارِحَةً ولَدَهَا في النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا، وهي تَقْدِرُ علَى ألَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: للَّهُ أرْحَمُ بعِبَادِهِ مِن هذِه بوَلَدِهَا. صحيح البخاري رقم [٥٩٩٩]

الأطفال جرَّاء الفقر والجوع والمرض؟ هل يستطيع بالفعل أن يصلح كل ذلك، لكنه اختار ألا يفعل، أم أنه لا يستطيع؟

كالعادة تعالت الهمهمات داخل القاعة بينما وقفت علياء في ثقة لا تبالي بما يحدث حولها، نظر إليها يوسف ليجد أنها فتاة متوسطة الجمال ينسدل شعرها البني بأطرافه الذهبية ليصل إلى كتفيها، ترتدي قميصًا ذا أكمام قصيرة "تي شيرت" وبنطالًا من الجينز الممزق عند الركبتين كما هي الموضة الشائعة هذه الأيام، ابتسم قبل أن يقول:

- إن هذا ليس سؤالًا واحدًا بل عدة أسئلة مجتمعة.

بداية الشر نوعان، نوعٌ لا دخل للإنسان فيه مثل الكوارث الطبيعية وغيرها، وآخر من صُنع الإنسان كالسرقة والقتل والحروب وما شابه، هناك اختلاف بين النوعين، فالشر في النوع الأول شيء نسبي، خير لبعضٍ منا وشرٌ للبعض الآخر.

فعلى سبيل المثال... نزول المطر، هل هو خير أم شر؟

أجابته في سرعة: بالتأكيد خير.

هزَّ رأسه نفيًا وهو يردف:

– هو خيرٌ لبعض الناس وشرٌ للبعض الآخر، فإن كان لك سقف يحميك وقت نزوله فلا مشكلة لديك، أما إن كنتِ ممن ليس لديهم رفاهية وجود ذلك السقف، فبالتأكيد سيتغير رأيك وسيصبح نزول المطر شرًا مستطيرًا بالنسبة لك.

قاطعته قائلة:

– هذا بالنسبة للمطر، كيف لا يكون الفقر والمرض وموت الأطفال شرًا مطلقًا؟ أين الخير في هذا؟ أين الخير في الكوارث الطبيعية التي تخلف وراءها آلاف الضحايا؟

أشار إليها يوسف قائلًا:

– أرجوكِ لا تقاطعينني، فلم أنته من الإجابة بعد، وتنهَّد قبل أن يردف قائلًا:

– إن الخير هو القاعدة والشر هو الاستثناء، فنحن نقضي معظم أعمارنا في صحة يتخللها بعضٌ من الأمراض التي تصيبنا على فترات، فالصحة هنا هي القاعدة والمرض هو الاستثناء، وبالرغم من أن المرض في ظاهره شرٌ، إلا أن بعض الأمراض تولد لديك مناعة يحتاجها جسدك.

أما بالنسبة للكوارث التي تتحدثين عنها، فيمكن أن تحمل الخير وإن كان ظاهرها غير ذلك، فالزلازل مثلًا هي تنفيس عن الضغط المكبوت داخل الكرة

الأرضية وبذلك تحمي القشرة الأرضية من الانفجار، وكذا البراكين فهي تخرج المعادن والثروات من جوف الأرض وتكسو الأرض بتربةٍ بركانيةٍ خصبةٍ.

وليس أدل على ذلك ما قاله الدكتور دي بوير[٥٢]: "أن الكوارث التي تنتج عن تحرك القشرة الأرضية عادة ما تتبعها فوائدُ عظيمةٌ، وأن الطبيعة تُولد من جديد مع هذا النوع من الأحداث الرهيبة، بل أن هناك الكثير من الجوانب الإيجابية حتى عندما لا نراها".

أما بالنسبة للحروب، فلا أحد يختلف عن كونها كارثة إنسانية بجميع المقاييس إلا أنها قد أفرزت لنا أعظم الاختراعات في تاريخ البشرية منها البنسلين، الذَرَّة، الطائرات النفاثة والصواريخ.

لقد عرفنا الخير بوجود الشر وأدركنا نعمة الصحة بعدما مسنا المرض، وما كنا سنعرف الجمال لولا القبح، ويقول الفيلسوف أبو حامد الغزالي[٥٣]: "إنَّ نقص

---

[٥٢] د. جيل زيلنجا دي بوير - Dr. Jelle Zeilinga de Boer (١٩٣٥ - ٢٠١٦م): أستاذ الجيولوجيا بعدد من الجامعات بالولايات المتحدة الأمريكية. له العديد من المؤلفات حول الزلازل والبراكين، منها [Stories - Earthquakes in Human History - Volcanoes in Human History in stones].

[٥٣] أَبُو حَامِدْ مُحَمّد الغَزّالِي الطُوسِيْ (١٠٨٥ - ١١١١م): أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين، كان فقيهًا وأصوليًا وفيلسوفًا، له أثرٌ كبيرٌ وبصمةٌ واضحةٌ في عدّة علوم مثل الفلسفة، والفقه الشافعي، وعلم الكلام، والتصوف، والمنطق. ترك عدداً من الكتب في تلك المجالات أشهرها كتاب إحياء علوم الدين.

الكون هو عين كماله، مثل اعوجاج القوس هو عين صلاحيته، ولو أنه استقام لما رمى".

يجب أن نوقن جميعًا أن الشرور بأنواعها هي ابتلاءات من الله، الغرض منها تكفير السيئات ورفع منزلتك في الجنَّة، فعلى قدر صبرك يكون ثوابك[٥٤]. والله يبتليك على قدر تحملك[٥٥] وبقدر إيمانك[٥٦].

أما بالنسبة لسؤالك "هل يستطيع الله القضاء على الفقر؟"، نعم يستطيع، لكنه يعطي ويمنع لحكمه، فإذا كان كل الناس أغنياء فمن سيعمل بالوظائف الدنيا؟

فوظيفة عامل جمع القمامة على سبيل المثال، برغم أهميتها إلا أن أحدًا لن يعمل بها، والنتيجة أننا سنعيش فوق جبال من القمامة تنتشر معها أمراض وأوبئة لا حصر لها.

---

[٥٤] {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} البقرة الآية [١٥٥].

[٥٥] {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} البقرة الآية [٢٨٦].

[٥٦] عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟، قَالَ: (الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ) صحيح الترمذي [٢٣٩٨]، سنن ابن ماجة [٤٠٢٣].

والله يقول إنه إذا وسَّع الرزق لجميع عباده لطغوا في الأرض بالظلم، ولكنه سبحانه ينزل من الرزق بقدر ما يشاء، إنه خبير بأحوال عباده بصير بها[٥٧،٥٨]. أعتقد أن هذه هي الإجابة على تساؤلاتك.

صاحت علياء معترضةً وهي تقول:

– وما ذنب الأطفال الأبرياء الذين يموتون يوميًا، هل هؤلاء يحتاجون أن يكفروا عن سيئاتهم؟

أشار إليها الدكتور جمال أن تجلس لإعطاء الفرصة لزملائها، إلا أن يوسف استوقفه ونظر إليها مطولًا قبل أن يقول:

– لا يمكننا أن ندرك حكمة الله في كل ما يفعل، ولعلَّ قصة الخضر وموسى عليهما السلام هي أكبر مثال على حكمة الله التي لم نكن لندركها إلا بعد أن أخبرنا بها الله في قرآنه[٥٩].

---

[٥٧] {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} الشورى الآية [٢٧].

[٥٨] المختصر في التفسير.

[٥٩] {فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْءًا نُّكْرًا} البقرة الآية [٧٤]

{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} البقرة الآيات [٨٠ - ٨١]

فعندما ننظر إلى تلك القصة، نجد أن نبي الله موسى؛ شأنه كشأننا جميعًا إذا ما كنا في نفس الموقف، لقد استنكر قيام الخضر بقتل ذلك الغلام ولم يكن يعلم أن قتلَ الغلام كان هو في واقع الأمر لصالح والداه، وقد تمَّ بأمر من الله.

هل تظنين أن تلك الأم الثكلى التي فقدت ابنها قد تعافت من فقدانه؟ بالطبع لا، ففي أغلب الظن أنَّها حتى وفاتها، كانت تبكي ابنها ولم تكن تعلم أن الله قد فعل ذلك من أجلها، لقد فعل ذلك لحكمة لم يدركها والدا الغلام، لا أقول إن موت الأطفال هو بالضرورة خيرٌ لآبائهم لكنه بالطبع هو لحكمة لا يعلمها إلا الله.

ضجت القاعة بالتصفيق ومن ثم ارتفعت الأيدي مرة أخرى رغبة في طرح المزيد من الأسئلة، أشار الدكتور جمال لأحد الطلبة الذي بدا متحمسًا وهو يرفع يده تارةً ويقف تارة أخرى رغبة منه في لفت الانتباه ليتم اختياره، وكان له ما أراد.

نهض الطالب واقفًا وقدَّم نفسه باسم أحمد سالم، ثم ما لبث أن عدَّل من وضع نظارته الطبية على وجهه قبل أن يقول:

– إن سؤالي هذا كثيرًا ما يتردد في ذهني وخاصة أثناء الصلاة، أنا أعرف يقينًا أن الله هو العدل، ولكن هناك الكثير من الأمور التي تحيرني، فمثلًا، هناك من يتمتع بالصحة والأولاد والأموال ولا يعاني من أية هموم، في حين أن البعض الآخر يشكون من ضيق الرزق ناهيك عن الأمراض التي يعانون منها هم

وأولادهم نتيجة ظلف العيش، فأين العدل في ذلك؟ والأمر الثاني، لقد غفر الله لآدم ذنبه بعد أن عصاه، إلا أنه لم يغفر لإبليس معصيته، هل الذنب الذي ارتكبه إبليس أكبر من ذنب نبي الله موسى الذي قتل نفسًا بغير نفس ومع ذلك غفر الله له؟ هل تسمي ذلك عدلًا؟

نهض خالد واقفًا وانتفخت أوداجه وهو يصيح في زميله:

– ما هذا الذي تقول؟ إنه اجتراء على الله، هذه هي نتيجة مخالطتك لحسام ومن هُم على شاكلته.

نهض حسام واقفًا وصاح في خالد محتدًا:

– لا تنطق اسمي على لسانك، وهذا هو آخر إنذار لك.

صاح الدكتور جمال في الجميع بالتزام الهدوء، ومن ثمَّ أمر كليهما بمغادرة القاعة، استأذن يوسف الدكتور جمال في أن يصفح عنهما ورجاه أن يتركهما ليكملا الندوة، برغم أنه يرفض أسلوب خالد إلا أنه يتفهَّم أنه قد فعل ذلك غيرةً على دينه.

تنهَّد الدكتور جمال قبل أن يوافق على طلب يوسف إلا أنه قام بتوجيه إنذارٍ شديد اللهجة لكلا الطالبين، محذرًا إياهما باتخاذ إجراءٍ حاسمٍ معهما إذا ما صدر عنهما أي تجاوز آخر.

شكره يوسف وقبل أن يجيب على السؤال وجد خالد يرفع يده، فأخبره جمال بأن ينتظر دوره لطرح سؤاله، إلا أن خالد أخبره أنه يرغب في إجابة سؤال زميله أحمد، نظر الدكتور جمال إلى يوسف الذي لم يبدي اعتراضًا على ذلك.

نهض خالد في حماسةٍ، والتفت إلى زملائه يخاطبهم:

– لقد تعلَّمنا في صغرنا أن الله قسَّم الأرزاق بيننا في الحياة الدنيا بالتساوي وهذه الأرزاق هي الصحة والمال والأولاد والزوجة وغيرها، فإذا افترضنا أن الأرزاق عبارة عن ٢٤ قيراطًا، فإن كلًا منا قد تحصَّل على هذه القراريط كاملةً.

فمثلًا قد نجد بعضنا لديه زيادة في المال وأقل في الصحة والأولاد وآخر لديه مال أقل ولكن رزقه الله زوجة وأولاد صالحين، وهكذا دواليك، ما يهم هو أن كلًا منَّا قد أخذ ٢٤ قيراطًا دون زيادة أو نقصان، ثم التفت إلى أحمد وأردف قائلًا:

– ألا يُعَدُّ ذلك عدلًا؟ بدا أحمد ممتعضًا من أسلوب خالد وتقمصه شخصية المعلم الذي يعطي درسًا لتلاميذه.

صمت خالد قليلًا قبل أن يردف قائلًا:

– أما بالنسبة لإبليس اللعين، فهو لم يَتُب إلى الله كما فعل آدم وموسى عليهما السلام، حتى وإن تاب فالله له مطلق الحرية في أن يفعل ما يريد، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وليس لنا أن نسأله لما فعلت هذا أو ذاك.

هذه هي الإجابة على سؤالك، ثم التفت إلى يوسف وعلى وجهه ابتسامة عريضة وشعور بالزهو بما فعل.

ابتسم يوسف بدوره وأشار لخالد بالجلوس قبل أن يقول:

– أتفق مع خالد في بعض ما قاله إلا أنني أختلف معه في البعض الآخر وخاصة فيما يخص تقسيم الأرزاق.

لاحظ يوسف علامات الاستنكار التي ظهرت على وجه خالد إلا أن يوسف لم يعره انتباهًا وتابع قائلًا:

– على الرغم من أننا تعلمنا بالفعل في صغرنا أن كلًا منا قد أخذ ٢٤ قيراطًا كاملةً، إلا أن هذه المقولة خاطئة تمامًا ولا تعدو كونها اجتهادًا من بعض العلماء ولا يوجد نص قرآني أو حديث شريف يؤيد هذه المقولة [٦٠]، بل على العكس من ذلك تمامًا.

فقد ورد في القرآن الكريم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب [٦١]، كما أنه فضَّل بعضنا في الرزق على البعض الآخر[٦٢]، وليس هذا فحسب بل أنه يؤتي الملك من

---

[60] https://www.youtube.com/watch?v=mKRdYGX-LKc
https://www.youtube.com/watch?v=VXDZ4yd5CwY

[٦١] {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} آل عمران الآية [٣٧]

يشاء وينزعه ممن يشاء [٦٣]، فكيف يتساوى في الرزق من أخذ الله منه الملك مع من أعطاه إياه؟.

لا بد أن نعرف أن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء واختبار وليست دارَ عدلٍ، وإنما العدل في الحياة الآخرة، وسيحاسبك الله على ما أعطاك من نِعَم، ماذا صنعت بها؟ هل أدَّيت حق الله فيها؟ أم تناسيت ذلك وظننت أن كل ما أنت فيه إنما هو بفضل جهدك وذكائك؟.

أما بالنسبة لإبليس، فإن الذنب الذي ارتكبه إبليس ليس رفضه السجود لآدم فقط، بل الاعتراض على حكم الله ومراجعته في أوامره، لقد تجرَّأ على الله وتناسى أنه هو الخالق، ولم يكتفِ بذلك؛ فلم يبادر بالتوبة كما فعل آدم وموسى عليهما السلام، بل طلب من الله ألا يموت إلى قيام الساعة.

ولَّما أعطاه الله ما طلب، زاد تكبره وتحديه لله رب العالمين، وأقسم أن يمنع ذرية آدم من شكر الله ويحملهم على الكفر به [٦٤]. لم ينتهز فرصة الحياة الأبدية التي منحها الله إياه للتوبة والتكفير عن ذنبه، بل آثر أن يقضيها في الانتقام من بني آدم.

---

[٦٢] {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} النحل الآية [٧١]

[٦٣] {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} آل عمران الآية [٢٦]

[٦٤] {وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ

ابتسم يوسف وهو ينظر إلى أحمد الذي نهض واقفًا وهو يقول مستنكرًا:

– ولماذا حقَّق له الله طلبه بالخلود؟ ألم يكن الله يعلم أن ذلك اللعين سيعيث في الأرض فسادًا؟ لو لم يجبه الله لما خرج آدم من الجنة ولربما كنا نعيش فيها الآن، أو على الأقل كنا سنعيش في الأرض دون شرور.

هزَّ يوسف رأسه نفيًا وهو يقول:

– بدايةً أود أن أذكرك بأن الله علَّام الغيوب.

بالطبع كان يعلم ما يرمي إليه إبليس بطلبه هذا، ولكن دعنا ننظر إلى الأمر من زاوية أخرى، إن الله لم يخلق آدم ليعيش في الجنة بل خلقه ليكون خليفته في الأرض[٦٥]، فأمرُ آدم محسومٌ قبل أن يُخلَق.

أما عن وجود الشيطان، فهو ضروري لاختبار الحياة الدنيا، فكيف سندخل الجنة دونما اختبار؟ لماذا ندخل نحن الجنة دونًا عن سائر المخلوقات؟ هل نحن أفضل من الملائكة الذين يطيعون الله ويعبدونه دون كللٍ أو مللٍ منذ خلقهم إلى قيام الساعة؟

يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ} الأعراف الآيات [١١ - ١٧]

[٦٥] {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ} البقرة الآية [٣٠]

هل تظن أنك لو عشت عمرك كله تعبد الله دون أن تعصيه، يُعَدُّ سببًا كافيًا لأن تُنَعم في الجنة إلى أبد الآبدين؟ بالطبع لا، لكن الله هو من حدَّد الجائزة لأنه يعلم صعوبة الاختبار، هذه هي إجابتي عن سؤالك.

ارتفعت الأيدي مرة أخرى، إلا أن يوسف طلب من الدكتور جمال استراحة قصيرة يعود بعدها لاستكمال الندوة، وكان له ما أراد.

***

أنهت سعديَّة شراء احتياجاتها من السوق، ومن ثَمَّ عادت مسرعة إلى شقتها التي ما أن دخلتها حتى شهقت وسقطت الأكياس من يديها وهي تحدق في سيد الذي يجلس على المقعد أمامها وبيده سيجارة مشتعلة ينفث دخانها في بطءٍ، بينما جلست ابنتاها أرضًا بجواره ونظراتهما تحمل الكثير من الخوف.

ابتسم سيد ابتسامة جانبية وهو يطيل النظر إلى سعديَّة متفحصًا جسدها ونظراته تفصح عن الكثير مما يجول في خاطره، بلهجةٍ متهكمةٍ سألها:

– ما بك، هل رأيتِ عفريتًا؟ عقدت المفاجأة لسان سعديَّة فظلَّت تحدِّق فيه دون أن تنطق بأيّ كلمة.

أطفأ سيجارته ونهض من مقعده متجهًا نحوها، إلا أنها تراجعت للوراء واستجمعت شجاعتها وهي تسأله:

– ماذا تريد، لم أعد زوجتك لقد طلقتني.

رفع حاجبيه في دهشة مصطنعة قائلًا:

– طلقتك!! متى حدث هذا؟

استعادت ملامحه صرامتها وتغيرت نبرة صوته ورفع سبابته أمام وجهه محذرًا:

– أنتِ لا تزالين زوجتي شئتِ أم أبيتِ، لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى.

تسارعت أنفاسها وهي تحسم أمرها وهي تقنع نفسها أنها لابد أن توقفه عند حدِّه هذه المرة وليكن ما يكون، حاولت أن تصيح في وجهه فخرج صوتها مرتعشًا على غير رغبتها وهي تقول:

– لا لست زوجتك... وإن كنت لا أزال في عصمتك كما تقول، فسأذهب للمحكمة لأخلعك و...

لم تستطع أن تكمل كلامها فقد أخرستها تلك الصفعة التي تلقَّتها على وجهها حتى كادت تفقدها الوعي من قوتها.

أمسك بها سيد من شعرها بكل قسوة وهو يدفعها أمامه إلى غرفة النوم وهو يقول:

– سأثبت لك أنك لا تزالين زوجتي، نظر لابنتيه في صرامة وحذَّرهما من أن يغادرا مكانيهما، فقبعتا ترتجفان من الخوف دون أن تجرؤ إحداهما على مخالفة أوامره.

***

لم تستغرق ريم الكثير من الوقت خارجًا، لقد كانت ترغب في التَّجول في الهواء الطلق بعد أن خلعت حجابها معتقدة أنها قد حطمت قيودها، كانت وفاة ابنتها صدمةً قاسيةً لها إلا أنها شعرت أن تلك الصدمة قد أيقظتها من غفوتها، لقد أزاحت عن صدرها ثقلًا كان يجثم عليه كما خُيلَ إليها.

عادت إلى شقة أمها فوجدتها في المطبخ تعدُّ الطعام، ألقت التحية عليها وسألتها إن كانت في حاجة إلى المساعدة، هزَّت نسرين رأسها نفيًا فقد قاربت على الانتهاء، ثم أخبرتها أن تسبقها إلى غرفة المعيشة على أن تلحق بها بعد قليل.

جلست ريم في غرفة المعيشة ثم ما لبثت أن توجهت أنظارها إلى المكتبة التي تقبع في أحد أركان الغرفة فنهضت من مقعدها وتوجهت ناحيتها ثم التقطت بعض الكتب وعادت إلى مقعدها، كانت تلك الكتب قد أهدتها لها صديقتها داليا التي سافرت مع زوجها إلى إحدى الدول الأوروبية وقضت بها عدة سنوات ثم عادت منذ ما يقرب من العام بعد طلاقها، كانت داليا صديقتها المقربة منذ الجامعة وإن اختلفت طريقة تفكيرهما وطباعهما.

وضعت ريم الكتب على المنضدة أمامها وشردت بأفكارها، تذكرت داليا وكيف اتصلت بها بمجرد عودتها من السفر واتفاقهما على اللقاء في أحد المقاهي "كوفي شوب" بالتجمع الخامس، تقابلا سويًا وتجاذبا أطراف الحديث وذكريات الجامعة، لكنها لاحظت شيئًا مختلفًا في داليا، لقد بدت لها وكأنها تفيض حيوية وانطلاقًا عما كانت عليه من قبل.

سألتها عن سر هذا التغير الذي طرأ عليها، فأخبرتها أن تجربتها في أوروبا قد غيرتها للأفضل وأزاحت الغمامة عن عينيها وستسرد لها كل التفاصيل، وتكررت اللقاءات والزيارات بينهما وصارتا تتقابلان مرة أو اثنتين أسبوعيًا. في إحدى المرات أهدت لها داليا تلك الكتب وأوصتها بقراءتهم.

تذكُر ريم جيدًا عندما بدأت في تصفح أول تلك الكتب، وكيف أنها لم تكد تكمل قراءة بضع صفحات منه إلا وأغلقته مستعيذة بالله، واتصلت بصديقتها تسألها عن ماهية تلك الكتب، فما كان من داليا إلا أن أجابتها في هدوء أن هذه الكتب هي ما تحتاجه بالفعل لتزيح الغشاوة عن عينيها، ولن يضيرها ما ستقرأ بل إنها ستشكرها لاحقًا.

وضعت ريم تلك الكتب في المكتبة وقد عقدت النية ألا تقرأها، إلا أنه وكما يقول المثل الإنجليزي "الفضول قتل القطة" [٦٦]، فقد دفعها فضولها لتصفحها، لقد

[٦٦] مثل إنجليزي يضرب للتحذير من الفضول الذي قد يقود لضرر.Curiosity killed the cat

فعلت ذلك على استحياء بعد أن أقنعت نفسها أنه لا بأس من القراءة فهي لن تقتنع إلا بما يمليه عليها عقلها.

في البداية لم تصدق ما جاء في تلك الكتب بأن الأديان أكذوبة ومصدر للشرور، إلا أنها راجعت ما تعرضت له من أبيها وزوجها السابق، لقد عانت منهما الأمرِّين، فالدين الذي يتلون كتابه ويستشهدون بأحاديثه، إذا ما كان يحقق مصالحهم فمرحبًا به، أما إذا كان في اتجاه غير ذلك فلينحوه جانبًا أو يوجدون له تفسيرًا يتماشى مع أهوائهم.

لقد تلقت الصدمات الواحدة تلو الأخرى، لقد ظنَّت أن أباها وزوجها السابق هما فقط من يفعلان ذلك وأن الدين بريء منهما، إلا أنها فوجئت بما حدث في الثورة عندما رأت بأم عينها ما فعله فصيلٌ إسلامي من تدليس وخداع، وليس هذا فحسب... بل وصل الأمر إلى القتل وسفك الدماء وإلصاق التُّهم بغيرهم، لقد قتلوا الأبرياء بدمٍ باردٍ لا لشيء إلا لإشعال الفتنة أو تحقيق بعض المكاسب السياسية.

هل هذا هو الدين حقًا؟ هل هذا هو دين السلام كما يقولون؟.

عصفت الأفكار برأسها للحظات قبل أن تلتقط صورة ابنتها من على المنضدة أمامها وتمطرها بقبلاتها، احتضنتها واغرورقت عيناها بالدموع وهي تتساءل، هل وفاة حلا عقابٌ من الله على قراءة تلك الكتب؟ هزَّت رأسها وكأنها تنفض تلك

الفكرة عن رأسها ومن ثم مسحت دموعها بكفها وهي تجيب على نفسها أن الله ليس له وجود.

لقد صدقت داليا فيما قالت، فقد أزالت تلك الكتب الغشاوة عن عينيها، في البداية لم تكن مقتنعة بما قرأت، ومع مرض ابنتها نَحَّت هذه الكتب وما تحتويه جانبًا وأخلصت في الدعاء والصلاة وقيام الليل، إلا أن كل ذلك لم يمنع موت صغيرتها.

إذًا فكل ما تحتويه هذه الكتب صحيح، وأن عدم وجود إله هو الشيء المنطقي الذي يفسر ذلك كله، ألم يخبروها أن القدر يتغير بالدعاء [٦٧]؟ لقد دعت الله كثيرًا دون جدوى.

انتزعها من أفكارها صوت والدتها وهي تجلس إلى جوارها وتهزها في رفق قائلة:

– ريم.. هوني عليكِ يا حبيبتي؟

التفتت إلى والدتها وأطالت النظر إليها قبل أن تلقي بجسدها في أحضانها وتجهش بالبكاء.

***

[٦٧] عَنْ سَلمَانِ الفَارِسِي رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالْ: «لا يَرُدُّ القضاءَ إلَّا الدُّعاءُ، ولا يزيدُ في العُمرِ إلَّا البِرُّ». صحيح الترمذي رقم [٢١٩٣].

انتهى يوسف والدكتور جمال من احتساء القهوة بمكتب الأخير وقبل أن ينهضا إذ بطرقات خفيفة على الباب وأحدهم يستأذن في الدخول، ما أن رآه الدكتور جمال حتى ابتسم قائلًا:

- كيف حالك يا أكرم، كيف يمكنني أن أساعدك؟

تنحنح أكرم قبل أن يقول بصوتٍ خافتٍ:

- في الحقيقة لدي سؤال شخصي أريد أن أطرحه على الأستاذ يوسف بعيدًا عن الزملاء. أشار له جمال بالجلوس.

ابتسم يوسف وهو ينظر إليه قائلًا: كلي آذانٌ صاغية.

صمت قليلًا قبل أن يقول:

- لماذا لا يستجيب الله لي؟ لقد دعوته كثيرًا بلا فائدة، أليس هو الذي قال "أدعوني أستجب لكم" [٦٨]، أين هي الإجابة؟

نظر إليه يوسف وهو يقول:

---

[٦٨] {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر الآية [٦٠].

- ليس شرطًا أن يحقق الله لك دعوتك في الوقت الذي تريد، فيمكن أن يستجيبها لك، أو ينجيك بها من شرٍ كان سيصيبك، أو يدخرها لك في الآخرة ليعطيك ثوابًا عظيمًا عوضًا عنها[٦٩].

رفع أكرم حاجبيه في دهشة قائلًا:

- وهل سيؤخر الله كل دعواتي إلى الآخرة؟ إنها ليست دعوة واحدة.

وقام بالعد على أصابع يده قائلًا:

- لقد دعوته أن أنجح العام الماضي بتقدير امتياز فتحصلت على جيد، دعوته أن تبادلني المشاعر الفتاة التي أحب إلا أن ذلك لم يحدث.

التفت إلى الدكتور جمال وحملت نظراته الكثير من العتاب وهو يقول:

- حتى أنني دعوته ليقع عليّ الاختيار رئيسًا لاتحاد الطلاب دون جدوى.

ضرب الدكتور جمال كفًا بكف وهو يقول:

- أكرم لقد أجبتك من قبل بشأن رئاستك للاتحاد، إنه ليس بالتعيين ولكنه بالانتخاب، زملاؤك هم من يختارون وليس أنا، فعلام الملامة إذًا؟

---

[٦٩] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ؟ قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ». مسند الإمام أحمد رقم [١٠٧٤٩]، "صحيح الترغيب والترهيب" للألباني رقم [١٦٣٣]

بدا أكرم محبطًا وهو يقول:

- حسنًا، ربما لم يكن لك يد في هذا، ولكنني لم أجد دعمًا من قيادة الكلية.

تدخل يوسف في الحوار قائلًا:

- بالطبع أتفهَّم إحباطك، لن أقول لك كما يردد البعض أنك لم تدعُ الله بإخلاص، أو إنك لم تدعوه وأنت موقن بالإجابة، بالرغم من أن هذه من الجائز أن تكون من الأسباب، ولكن ما أريد قوله إن زمن المعجزات انتهى.

هل تريد من الله أن يحقق لك المعجزات أو أن يغيِّر نواميس الكون من أجلك - بالطبع هو قادر على ذلك - ولكن يجب أن تفعل ما هو مطلوب منك أولًا ليستجيب لك.

هل ذاكرت جيدًا لتحصل على التقدير الذي تريد؟ هل واظبت على حضور المحاضرات؟ هل أعددت نفسك جيدًا قبل الاختبار؟ أشك في هذا.

أما بالنسبة للفتاة التي تدعو الله أن تبادلك المشاعر، من أدراك أنها ترغب في ذلك؟ أليس ذلك الأمر منوطٌ بها؟ كيف تريد من الله أن يغير حياة شخصٍ آخر من أجلك؟ هل حاولت أن تدخل البيت من بابه وتتقدم لخطبتها؟.

أعتقد أنك لم تفعل، لو فعلت لربما وجدت قبولًا منها، لكن بدلًا من ذلك، تلوم الله على عدم إجباره لتلك الفتاة لتقع في غرامك.

وبالتأكيد الفوز بمقعد رئيس اتحاد الطلاب يحتاج للكثير من الجهد، فالأمر لا يقتصر فقط على الدعاء دون القيام بما يستوجب الفوز، فمن أسباب الفوز على سبيل المثال أن تحقق انتشارًا بين الطلاب، فكيف سيختارونك وهم لا يعرفونك؟ إنهم اختاروا من يعرفون ويثقون في أنه سيحقق مطالبهم ويمثلهم أمام إدارة الكلية.

التفت إلى الدكتور جمال وسأله عمن فاز برئاسة الاتحاد، فأجابه بأنه طالبٌ متفوقٌ ومن أوائل الدفعة ومحبوب من الجميع أساتذة وطلاب.

نظر إلى أكرم وسأله: هل أنت أحق بالفوز منه؟

بدأ الارتباك على أكرم وتجمعت قطرات العرق على جبينه، نهض واقفًا لا يجد ما يقول، إلا أن يوسف وضع يده على كتفه قائلًا:

– للدكتور الراحل مصطفى محمود مقولة رائعة في ذلك، إذ يقول "طلبت من الله الكثير ومنعه عني، وكان منعه قمة عطائه، فتعلمت أن أطلب ما أريد وأقبل بما يريد، فدائمًا إرادته تأتي بالخير وإرادتي تسوقني إلى الشر، ولا زال يأخذ بيدي إلى الخير حيث تيقنت أنه هو الله أرحم الراحمين".

***

ارتسمت على وجهِ سيد ابتسامة مزجت ما بين التشفي والانتصار وهو يفتح باب الغرفة مغادرًا إياها بينما يقوم بغلق سحاب السروال خاصته، في حين انكمشت سعديَّة في أحد الأركان تجهش بالبكاء جراء ما تعرضت له.

حاولت قدر استطاعتها أن تستر جسدها بملابسها أو بالأحرى ما بقي منها، بعدما تعرضت له من اغتصاب على يد زوجها الذي لم تمنعه دموعها وتوسلاتها من أن يفعل ما فعل، لقد أراد أن يؤدبها على طريقته، فقد كانت تلك هي الطريقة المثلى من وجهة نظره.

جلس على أحد المقاعد وأشعل سيجارة، نفث دخانها وهو ينظر إلى باب الغرفة وابتسامته لم تغادر شفتيه، التفت إلى ابنتيه وسأل عن وليد، ابتلعت آيه ريقها قبل أن تجيبه بأنه يعمل في ورشة لإصلاح السيارات ويعود بعد العشاء.

طقطق بلسانه وبدا متأففًا، ثم أمرها أن تعد له كوبًا من الشاي على أن تحضر معه قطعة من الجبن وخبزًا، نهضت مسرعة لتحضر ما طلب، ووضع يده في جيبه وأخرج بعضًا من النقود التي أخذها عنوة من زوجته، لم يكتفِ باغتصابها بل أنه أخذ منها ما كانت تدَّخره لجهاز بناتها.

تنقلت نظراته ما بين النقود التي في يده وابنته الصغرى شروق، بدا مترددًا إلا أنه سرعان ما حسم أمره وأعاد النقود إلى جيبه مرة أخرى، فلينتظر عودة وليد

ليرسله لشراء الحشيش الذي يريد، فهو لا يريد أن يغامر بشرائه بنفسه، فقد خرج لتوه من السجن ويخشى أن يكون مراقبًا.

***

قبل أن يصل يوسف إلى القاعة أصدر هاتفه المحمول تنبيهًا بورود رسالة، ما أن تفقد هاتفه حتى توقف فجأة عن السير ممَّا دعا الدكتور جمال ليسأله إن كان كل شيء على ما يرام، علت ملامح يوسف ابتسامةٌ باهتةٌ وهو يستأذن الدكتور جمال أن يسبقه إلى القاعة، فلابد له من إجراء مكالمة هاتفية وسيلحق به بعدها مباشرة.

ابتسم الدكتور جمال وانطلق في طريقه إلى القاعة تاركًا يوسف يجري مكالمته، كانت الرسالة تفيد أن هاتف ريم قد أصبح متاحًا، اتصل بها في لهفة وتسارعت نبضات قلبه مع رنين هاتفها وهو يحاول السيطرة على مشاعره.

بدت خيبة الأمل على وجهه عندما لم يجد إجابة، حاول مرة أخرى ولكن لم تختلف تلك المرة عن سابقتها، أطلق زفرةً حارةً واختلطت مشاعره ما بين الحنق والقلق، لقد كان غاضبًا من عدم ردها على مكالماته إلا أنه في نفس الوقت كان قلقًا أن يكون قد حدث لها مكروه.

وضع هاتفه في جيبه وأطرق برأسه مفكرًا، أخذ يقدح زناد فكره فيما يمكن أن يفعل، لم يجد ما يمكن فعله، وتمنى لو كان معه رقم هاتف والدتها لاتصل بها، تذكر والدتها... تلك السيدة اللطيفة التي قابلها عندما تقدم لخطبة ريم.

ما إن تذكر والدتها حتى لمعت عيناه، فقد بدا أنه قد وجد الحل، فليذهب إلى منزل والدتها ليطمئن منها بنفسه، إنه لا يزال يذكر العنوان، إلا أنه عاد يسأل نفسه، هل هي فكرة جيدة أن يذهب لوالدة ريم ليسألها؟.

كاد أن يتراجع عن تلك الفكرة إلا أنها بدت هي الطريقة الوحيدة أمامه، واستقر رأيه على أن ينهي الندوة سريعًا ليتوجَّه لبيت والدة ريم بعدها مباشرة، وإذا كان كل شيء على ما يرام ستكون تلك فرصة سانحة ليطلب منها يد ابنتها.

ما إن جلس يوسف إلى مقعده بجوار الدكتور جمال حتى أشار الأخير إلى إحدى الطالبات لتلقي سؤالها، وقفت دعاء كما عرَّفت نفسها وبدت واثقة من نفسها وهي تقول:

- ظهرت على مر العصور العديد من النظريات العلمية التي تفسر نشأة الكون، فمنها من يقول إن الكون أزلي ليس له بداية وهو مستمر إلى ما لا نهاية،

وأخرى تؤكد أن الكون قد نشأ بمحض الصدفة نتيجة ما أُطلِق عليه الانفجار العظيم[٧٠]، فأي النظريتين من وجهة نظرك هي الأقرب للصواب؟

أسند يوسف مرفقيه إلى الطاولة أمامه وأغمض عينيه بينما وأراح جبهته إلى راحتيه محاولًا استعادة تركيزه، لقد كان باله لا يزال مشغولًا بريم، فتح عينيه بعد هنيهة ونظر إلى دعاء، كانت ترتدي عوينات طبيَّة سميكة، لا تعتني بمظهرها على عكس معظم الفتيات في سنها، بدا واضحًا أنها تعطي العلم والدراسة الأولوية دون أي اعتبارات أخرى.

ابتسم وهو يقول:

– قبل أن أجيب عن سؤالك، أحب أن أعرف رأيك أولًا، إلى أي النظريتين تميلين؟

بدت واثقة من نفسها وهي تجيب:

[٧٠] الانفجار العظيم: هو أقرب النظريات التي تفسر نشأة الكون. تعتمد فكرة النظرية أن الكون كان في الماضي كتلة واحدة شديدة الكثافة قبل أن يحدث انفجارًا نشأت عنه الكواكب والمجرات كما نعرفها. بعض التقديرات تُقَدِر حدوث تلك اللحظة قبل ١٣,٨ مليار سنة، وهو ما يُعَد عمر الكون.

– النظرية الثانية بالتأكيد، فكل شيء في الكون له بداية ونهاية شأنه كشأننا جميعًا، إلا أن بداية الكون كانت بمحض الصدفة عندما وقع ما سُمِيَ بالانفجار العظيم.

مطَّ يوسف شفتيه قبل أن يقول:

– إن القاسم المشترك بين النظريتين اللتين تتحدثين عنهما هو عدم وجود إله، الذي هو بالطبع رأيك أيضًا.

لم تتخلَّ عن لهجتها الواثقة وهي تقول:

– هذا ليس رأيي وحدي، بل هو أيضًا رأي العديد من علماء الفيزياء والفلك مثل ستيفن هوكينج [٧١] ولورنس كراوس [٧٢] وغيرهم.

---

[٧١] ستيفن ويليام هوكينج - Stephen William Hawking (١٩٤٢ - ٢٠١٨م): من أبرز علماء الفيزياء النظرية وعلم الكون على مستوى العالم، درس فى جامعة أكسفورد وحصل منها على درجة الشرف الأولى فى الفيزياء، أكمل دراسته فى جامعة كامبريدج للحصول على الدكتوراه فى علم الكون، له دراسات وأبحاث نظرية عديدة في علم الكون والعلاقة بين الثقوب السوداء والديناميكا الحرارية.

[٧٢] لورنس ماكسويل كراوس Lawrence M. Kraus (ولد في مايو ١٩٥٤م): فيزيائي وعالم فلك أمريكي كندي يعمل كأستاذ جامعي في كلية استكشاف الأرض والفضاء في ولاية أريزونا الأمريكية، وأستاذ سابق في جامعتي ييل وكيس وسترن ريزيرف. له عدة مؤلفات تعد من أكثر الكتب مبيعًا، منها كتابي "فيزياء ستار تريك" و"كون من لا شيء". وهو داعم كبير لفهم العامة للعلم، كما أنه يعمل لتقليل تأثير ما يعتبره خرافات دينية في الثقافة الشعبية.

ما إن سمع خالد نفيها وجود الإله حتى انتفخت أوداجه وهمَّ بالوقوف معترضًا، إلا أن نظرة التحذير التي رمقها إياه الدكتور جمال جعلته يعدل عن ذلك ويؤثر السكوت وهو يجلس كاظمًا غيظه.

أومأ يوسف برأسه وهو يقول:

– أتفق معك تمامًا في أنهم علماء نابغون، إلا أنهم بشر يخطئون ويصيبون، والدليل على ذلك أن النظرية الأولى التي تبناها بعض العلماء قد أثبت العلم الحديث خطأها، وهو ما أثبتته قوانين الديناميكا الحرارية [٧٣] التي دحضت هذه النظرية بما لا يدع مجالًا للشك.

تنص تلك القوانين على أن طاقة الكون محدودة، كخزان الوقود في السيارة مثلًا، فإن له سعة محددة ويتناقص الوقود به مع كل استخدام للسيارة إلى أن يفرغ، بعدها ستتوقف السيارة عن العمل.

وكذلك الحال مع طاقة الكون فمع كل لحظة يستهلك الكون جزءًا منها، إذًا فالكون لن يستمر إلى ما لا نهاية، وستنضب طاقته يومًا ما لا محالة، وهذا ينفي عنه صفة الأزلية.

---

[٧٣] الديناميكا الحرارية Thermodynamics :
هو أحد فروع الفيزياء الذي يدرس خواص انتقال الشكل الحراري للطاقة وتحولاته إلى أوجه أخرى، مثل تحول الطاقة الحرارية إلى طاقة ميكانيكية أو طاقة كهربائية وكذا تحول الطاقة الحركية إلى طاقة كهربائية.

بل أن هناك ثلاثة من العلماء [٧٤] البارزين في مجال الفيزياء قدموا دراسة مهمة[٧٥] عرفت بأسمائهم، وانتهت إلى أنه لو كان الكون أزليًا لاحتاج إلى قوانين فيزياء أخرى غير القوانين الحالية.

أما بالنسبة لنظرية الانفجار العظيم، فهي أقرب الفرضيات التي تفسر نشأة الكون، إلا أن الكون لم ينشأ عن طريق المصادفة، فكيف لشيء عشوائي كالصدفة أن ينتج عنه شيء متكامل ككوننا هذا؟.

قاطعته قائلة:

– أتفق معك تمامًا في أنه لا يمكن للصدفة أن ينتج عنها شيء متكامل، إلا أن...

قاطعها قائلًا:

– لقد أعطيتك الفرصة للسؤال ولم أقاطعك، فأرجوك لا تقاطعينني.

هزت كتفيها:

---

[74] Arvind Borde, Alan Guth, and Alexander Vilenkin

[٧٥] نظرية Borde – Guth – Vilenkin ، أو نظرية BGV ، هى نظرية في علم الكونيات الفيزيائي تستنتج أن أي كون تمدد طوال تاريخه، لا يمكن أن يكون أزليًا بل يجب أن يكون له حدود زمكان سابقة. لا تفترض النظرية أي محتوى كتلة محدد للكون ولا تتطلب وصف الجاذبية بواسطة معادلات أينشتاين. تحظى نظرية BGV بشعبية أيضًا خارج الفيزياء، خاصة في المناقشات الدينية والفلسفية.

– لم أقصد المقاطعة لكنه تعليق على ما تقول، لم يكن هناك انفجار واحد بل عدة انفجارات حدثت في نفس الوقت ونشأ عنها مليارات من الأكوان، منها أكوان مشوهة وأخرى بلا تشوه وبالمصادفة كان كوننا إحداها.

حرك رأسه يمنة ويسارًا معترضًا على ما قالت، قبل أن يقول:

– إن ما تتحدثين عنه هو نظرية الأكوان المتعددة [٧٦]، والتي لا يوجد دليل علمي واحد يؤيدها، وعلى حد علمي لم يتم رصد أي حالة تواصل مع أحد من هذه الأكوان.

لقد رفضت العديد من الجهات العلمية المرموقة فرضية نشأة الكون بالصدفة، فلنأخذ مثلًا ما تناولته الموسوعة البريطانية [٧٧] حيث قالت "إن احتمال تشكل الحياة

---

[٧٦] الأكوان الموازية: يطلق عليها أيضًا الأكوان المتعددة «Multiverse»، ظهرت الفكرة لأول مرة عام ١٩٥٤ بواسطة هيو إيفيرت المرشح لنيل درجة الدكتوراه من جامعة برينستون أنذاك، وهي تفترض أن هناك تريليونات الأكوان الأخرى [١٠ أس ٥٠٠ كون]، طبقا لستيفن هوكينج في كتابه الأخير «التصميم العظيم - The Grand Design». وتفترض النظرية حدوث عدة انفجارات وليس انفجارًا واحدًا، نشأ عنها عدة أكوان. وكوننا خالي من العيوب بالمصادفة البحتة مع اعتبار أن هناك أكوانًا أخرى مشوهة. وبذلك تنتفي - من وجهة نظرهم - فكرة وجود الخالق العظيم.

[٧٧] الموسوعة البريطانية - Encyclopædia Britannica : هى موسوعة عامة باللغة الإنجليزية تصدرها شركة الموسوعة البريطانية المحدودة الخاصة. تستهدف القراء المتعلمين والمثقفين ويكتبها ١٠٠ موظف بدوام كامل، وأكثر من ٤٤٠٠ مساهم مختص. صدرت لأول مرة بين عامي ١٧٦٨ و١٧٧١م في مدينة إدنبرة الأسكتلندية، وتعد من أشهر وأدق الموسوعات وأشدها سعة واطلاعًا.

عن طريق الصدفة، تساوي احتمال أن يقوم أحدهم برمي عملة نقدية مليون مرة وفي كل مرة يحصل على نفس الوجه للعملة".

لم يقتصر الأمر على الموسوعة البريطانية فحسب بل أن هناك أيضًا العديد من العلماء الذين عارضوا الفكرة، منهم عالم الفضاء والفلك البريطاني فريد هويل [٧٨] الذي قال "إن احتمالية نشوء الحياة بمحض الصدفة تساوي احتمالية أن يضرب تيار كهربائي كومة من الخردة ويؤدي ذلك إلى تشكل طائرة بوينج ٧٤٧".

ولكن للأسف فإن بعض العلماء يتبنون أي فرضية لنفي وجود الخالق، لكن الكون بقوانينه المحكمة يشير وبقوة إلى وجود خالق عظيم أبدع في خلقه.

صمت هنيهة ومن ثم أردف قائلًا:

– هناك كتاب عن الفضاء والكون لمؤلفه ديتر هيرمان[٧٩] ذكر بعض الحقائق عن نشأة الكون، منها أن العلماء الذين بحثوا في كيفية نشأة الكون قالوا: لو أن سرعة تمدد الكون عند نشوئه أكبر بنسبة «واحد بالتريليون أُس ٣» من السرعة

---

[٧٨] فريد هويل - Fred Hoyle (١٩١٥ - ٢٠٠١): عالم فضاء ورياضيات بريطاني، يعتبر من أبرز علماء الفضاء في القرن العشرين. ساهمت أعماله بشكل كبير في فهم وتفصيل نظرية الانفجار العظيم بعد أن كان من معارضيها، وهو من أطلق ساخرًا تسمية (Big Bang) عليها في برنامج على إذاعة بي بي سي، وله يعزى فضل حسابات تفاعلات الانصهار النجمي. وقد أُطلِقَ اسمه على مذنب مشهور تكريمًا له.

[٧٩] ديتر برنارد هيرمان - Dieter Bernhard Herrmann (١٩٣٩ - ٢٠٢١م): مؤرخ ألماني لعلم الفلك ومؤلف العديد من الكتب في علم الفلك. كان مديرًا لقبة زايس السماوية الرئيسية في برلين. تناول في عمله العلمي التَّطور المبكر للفيزياء الفلكية وتطبيق الأساليب الكمية في تاريخ العلوم.

التي تمدد بها الكون – وهي نسبة لا تذكر– لتفتت المادة الفضائية ولما تشكلت النجوم والكواكب.

أما إذا كانت سرعة تمدد الكون عند نشوئه أقل – بنفس النسبة – لما كان بالإمكان أن تجتمع الأتربة الفضائية معًا وما كنا لنكون هنا الآن، بل إن القوة التي تتجاذب بها الذرات مع بعضها البعض ويؤدي ذلك إلى تماسكها، لو كانت أكبر أو أقل مما هي عليه بنسبة «واحد بالتريليون أس ٣» لما كان أحد منا موجودًا الآن.

هزت كتفيها في لامبالاة قائلة:

– هذه أيضًا فرضيات تحتمل الصواب والخطأ، ولا تنفي احتمالية أن الكون نشأ بالصدفة.

رفع حاجبيه في دهشة وهو يقول:

– فرضيات؟ إنها ليست فرضيات، إنها دراسات تم إعدادها بكل دقة.

ثم هزَّ رأسه وتنهد قبل أن يردف قائلًا:

– إذًا دعيني أخبرك عن حقائق لا جدال فيها، انظري إلى الأرض التي نعيش فيها، لقد صممت لتناسب معيشتنا، وجود المياه، ميل محورها بمقدار (٢٣,٥ درجة) بالتحديد وهو ما يسبب حدوث الفصول الأربعة، دورانها حول نفسها

كل ٢٤ ساعة، بعدها عن الشمس بمسافة محددة لو زادت أو قلت ما استطعنا العيش عليها.

ليس هذا فحسب بل وجود غلافها الجوي الذي يحتوي على نسبة (٠,٤ ٪) من غاز ثاني أكسيد الكربون، تلك النسبة الضئيلة هي التي تجعل متوسط درجات الحرارة على الكوكب (١٤ درجة مئوية)، ولو لم تكن موجودة لكان متوسط درجات الحرارة (-١٩ درجة مئوية).

انظري إلى قوانين الطبيعة، كيف تشكلت؟ ألم يكن هناك جاذبية أرضية قبل قوانين نيوتن؟ إن أينشتاين ونيوتن وغيرهما لم يبتكرا قوانين جديدة، بل اكتشفا قوانين أوجدها الله لتنظم عمل هذا الكون الذي نعيش فيه.

لقد اكتشفا قوانين الطبيعة التي تشكلت منذ زمن سحيق، لتقوم لاحقًا بوظائف مطلوبة في كونٍ لم يوجد بعد، هذه أشياء لا تحدث بالصدفة.

إذا لم تُقنِعُك تلك الحقائق، فلا شيء سيفعل، هذه هي إجابتي لك.

ما إن قال ذلك حتى ارتفعت الأيدي ثانية إلا أنه اعتذر عن قبول أية أسئلة أخرى، شكر إدارة الكلية والحاضرين قبل أن ينصرف مسرعًا.

***

هدأت ريم قليلًا بعد أن أنهت كوب الكاكاو الساخن الذي أعدته لها والدتها التي جلست إلى جوارها تغالب دمعة تجاهد لتقفز خارج مقلتيها، كانت تحاول أن تبدو متماسكة أمامها محاولة أن تخفف عنها مصيبتها في ابنتها حلا، إلا أنها ما إن تختلي بنفسها وتغلق عليها باب غرفتها حتى تطلق العنان لدموعها.

نظرت لها مشفقةً وربتت على كتفها وهي تقول:

- هوني عليكِ يا بنيتي، بالتأكيد هي في مكان أفضل، وستكون سببًا في دخولك الجنة.

نظرت إليها وبنبرة متهكمة قالت:

- الجنة! طقطقت بلسانها قبل أن تتابع قائلة:

- أما زلت تصدقين هذا الهراء؟

اتسعت عينا نسرين وبدا الانزعاج على قسماتها وهي تقول:

- هراء!! الجنة هراء؟! ما هذا الذي تقولين؟ هل فقدت عقلك؟!.

هزت رأسها نفيًا قبل أن تقول:

- فقدت عقلي!؟ بالطبع لا، لقد عدت إلى رشدي بعدما تأكدت أن كل ما تربينا عليه عبارة عن أكذوبة كبرى.

لم تصدق نسرين ما تسمع، إنها على يقين أن ريم ليست على طبيعتها، بالتأكيد هي تعاني صدمة جراء فقدان ابنتها، وهو التفسير المنطقي لما حدث سابقًا من تخليها عن حجابها وما تفوهت به قبل خروجها.

بدت في حيرة من أمرها لا تدري ما تفعل، إن ريم ليست في حالتها الطبيعية وهي تخشى إن قامت بنصحها أن يأتي ذلك بنتيجة عكسية، فلتتركها بضعة أيام حتى تهدأ وتعود إلى طبيعتها، همَّت بقول شيء ما إلا أن رنين جرس الباب جعلها تعدل عن ذلك وتنهض لترى من الطارق.

ما إن فتحت الباب حتى تهلل وجهها فرحًا، لقد كانت داليا صديقة ريم المقربة والتي اعتادت على الحضور يوميًا منذ وفاة حلا، كان حضورها كفيلًا بتغيير حالة ريم النفسية إلى الأفضل، ابتسمت داليا وحيَّت نسرين ثم سألتها عن ريم، أجابتها أنها في غرفة المعيشة كعادتها.

أخبرتها نسرين أنها تعتمد عليها لتخرج ريم من تلك الحالة التي تمر بها، فبالتأكيد هي تستطيع ذلك بصفتها صديقتها المقربة، وعدتها داليا أن تبذل قصارى جهدها لتحقيق ذلك، قالتها ولحقت بصديقتها في غرفة المعيشة.

ما إن دلفت داليا إلى الغرفة حتى تهلَّل وجه ريم، تعانقتا وتبادلتا القبلات وكأنهما لم يتقابلا منذ سنوات، قبل تجلس داليا لفت نظرها الكتب على المائدة أمامها، تلك الكتب التي أهدتها لريم منذ فترة.

التقطت داليا أحد الكتب وكان بعنوان "وهم الإله"[٨٠] لكاتبه ريتشارد دوكينز[٨١]، ارتسمت ابتسامة على شفتيها وهي تخبر ريم أن ذلك هو كتابها المفضل، فقد كان بمثابة الضوء الذي أزاح الغشاوة عن عينيها.

أومأت ريم برأسها موافقة، إلا أنها أمسكت كتابًا آخر بعنوان "الله – الفرضية الفاشلة"[٨٢] لكاتبه فيكتور ستينجر [٨٣]، وابتسمت وهي تقول:

– أن هذا الكتاب هو الآخر لا يقل أهمية عن كتاب دوكينز.

مطَّت داليا شفتيها وهزت كتفيها وهي تقول: معك حق.

---

[٨٠] وهم الإله - The God Delusion: كتاب من تأليف عالم الأحياء البريطاني الملحد ريتشارد دوكينز .نشر عام ٢٠٠٦م. يذكر فيه بعض المغالطات في المعتقدات الدينية من وجهة نظره، ويدَّعي أن احتمال وجود الله هو احتمال ضئيل جدًا وأن الإيمان بوجوده هو مجرد وهم.

[٨١] كلينتون ريتشارد دوكينز Clinton Richard Dawkins: عالم سلوك حيوان وأحياء ومؤلف بريطاني، كان أستاذًا في جامعة أوكسفورد، وهو زميل فخري لكلية نيو كوليج. عُرف دوكينز بكونه ملحدًا ومنتقدًا لفكرة التصميم الذكي. حصل دوكينز على جوائز أكاديمية وجوائز أدبية، كما أن له ظهورًا منتظمًا على التلفاز والراديو والإنترنت، حيث يناقش كتبه، آراؤه وأفكاره الإلحادية.

[٨٢] الله: الفرضية الفاشلة - God: The Failed Hypothesis: يحاول الكاتب من خلال هذا الكتاب أن يثبت بالعلم انه لا يوجد إله لهذا الكون، ومن خلال الأدلة التي ذكرها يحاول التشكيك في وجود الله. يدعي ان الدين هو السبب في جميع حروب العالم وان الدين هو وسيلة لقياده الجهلاء من اجل تحقيق اهداف شخصيه، والحروب الصليبية أكبر دليل على ذلك. كما يتحدث ايضا عن الشر ويتساءل لماذا اوجده الاله ان كان كله خير.

[٨٣] فيكتور جون ستينجر - Victor John Stenger (١٩٣٥ - ٢٠١٤): أمريكي متخصص في فيزياء الجسيمات، وفيلسوف وكاتب ملحد. نشر اثني عشر كتابا عن الفيزياء وميكانيكا الكم، علم الكون، الفلسفة، الدين، والإلحاد. هو قائل عبارة «العلم يطير بك إلى القمر، والدين يطير بك إلى داخل المباني».

أمسكت داليا الكتاب من يد ريم ووضعت الكتابين على الطاولة أمامها وهي تردف قائلة:

– دعكِ من هذه الكتب، ولنكتفِ حاليًا من غذاء العقل فقد حان موعد غذاء الجسم، إنني أتضور جوعًا.

ابتسمت ريم وهي تقول:

– من حسن الحظ أن أمي تعد بعض الطعام، سأذهب لأرى إن كانت انتهت من إعداده، قالتها ونهضت خارجة من الغرفة.

ما إن دخلت ريم المطبخ حتى وجدت والدتها مستندة بيد إلى المنضدة أمامها واضعة يدها الأخرى على رأسها، تبدو مُتعَبَة، سألتها في لهفة إن كان كل شيء على ما يرام، التفتت إليها وأومأت إيجابًا قبل أن تخبرها أنه مجرد صداع بسيط وسيزول بعدما تتناول قرصًا من المسكنات.

بدا القلق على وجه ريم وحاولت إقناعها بالذهاب إلى الطبيب، ابتسمت نسرين وأخبرتها أنه لا يوجد ما يستدعي القلق، وأن الصداع ليس سببًا كافيًا للذهاب إلى الطبيب، طمأنتها أنها ستأخذ بنصيحتها إذا ما تكرر الأمر.

همَّت ريم بالاعتراض إلا أن رنين جرس الباب حال دون ذلك، سألت أمها إن كانت تنتظر أحدًا فأجابتها بالنفي، أخبرت أمها أنها ستذهب لترى من بالباب وتعود لتناقش معها أمر ذهابها إلى الطبيب.

ما إن فتحت ريم الباب حتى فغرت فاها وتسمَّرت في مكانها، لقد عقدت المفاجأة لسانها واختلطت مشاعرها ما بين الفرحة والخجل، لقد كان هو آخر شخص تتوقع أن تراه، لقد مضت سنوات على آخر لقاء جمعهما وآخر ما كانت ترغب فيه أن يراها في تلك الحالة، في حين أنه – كما تراه – كان كما هو لم يتغير، لقد بدا وكأن قطار الزمن لم يمر ببابه.

لم يكن يوسف بأحسن حالٍ منها، فهو لم يتوقع أن يراها أمامه، لقد أتى ليقابل والدتها ليسأل عنها، فإذا به يجدها أمامه، جميلة كما عهدها دائمًا بأناقتها وشعرها الأسود المعقوف و... لكن مهلًا، متى خلعت حجابها! لقد كانت محجبة منذ أن تعرف عليها، ما الذي حدث؟!.

مضت بضع دقائق وهما على هذا الحال لا يتكلمان وإنما تتعلق نظراتهما ببعضهما البعض، تلك النظرات التي تعبر عما يجول في خاطريهما، انتزعهما من حالتهما تلك صوت نسرين التي خرجت من المطبخ تسأل ريم عمن بالباب.

ما إن وقعت عيناها على يوسف حتى علت الدهشة قسمات وجهها، لقد بدا لها أن الله قد استجاب دعواتها أن يساعدها لتعود ريم لطبيعتها وتخرج من حالتها تلك، وإن كان هناك من يمكنه مساعدتها في ذلك فهو بالتأكيد يوسف.

حدَّثت نفسها أن الله قد أرسله، وسرعان ما تمالكت نفسها وحيَّت يوسف ودعته للدخول، تردد في البداية، إلا أنه ومع إلحاحها لم يكن أمامه مفر إلا أن يذعن لها في النهاية.

ذهبت لإعداد بعض المشروبات، بينما اقتادته ريم إلى حجرة المعيشة حيث صديقتها داليا، ما إن دلف يوسف للغرفة حتى أشارت ريم تجاه صديقتها قائلة:

- يوسف، هل تذكر داليا؟ داليا عبد المنعم زميلتنا في الجامعة؟

أجابها يوسف قائلًا: بالطبع أذكرها، لقد كانت صديقتك المقربة.

ابتسمت داليا وهي تصافح يوسف قائلة:

- كيف حالك يا يوسف؟ لم تتغير منذ أيام الجامعة.

شكرها يوسف على مجاملتها الرقيقة، نظرت ريم لصديقتها قائلة:

- إن يوسف قد صار له برنامجه الخاص على إحدى القنوات الفضائية.

رفعت داليا حاجبيها ونظرت ليوسف في إعجاب قائلة:

- برنامج!! ما هو اسمه؟

ابتسم يوسف وبدا متواضعًا وهو يقول: "رأيت الله"، هذا هو اسم البرنامج.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه داليا وبنبرة متهكمةٍ قالت: الله!!

هزت رأسها نفيًا ومطت شفتيها وهي تستطرد:

- للأسف لا أشاهد برامج خيالية.

ارتسمت على شفتي يوسف ابتسامة بسيطة وبهدوئه المعتاد قال:

- هو ليس برنامجًا خياليًا ولكنه لن يستهويكِ، فهو يخاطب العقل.

تغيرت قسمات وجه داليا وهمَّت بالتعليق إلا أن يوسف لم يعرها انتباهًا ووجه حديثه لريم، سألها عن أخبارها واختفائها الفترة الماضية، فأخبرته أنها كانت في حالة نفسية سيئة نتيجة وفاة حلا، ولولا وقوف أمها وداليا بجوارها لربما كانت قد لحقت بابنتها.

بدا التأثر واضحًا على وجه يوسف واعتذر لها عن عدم وقوفه بجوارها في أزمتها تلك، ابتسمت ريم وأخبرته أنه لا داعي للاعتذار فهو لم يكن على علم بما تعرضت له، ويكفي حضوره اليوم للاطمئنان عليها.

ابتسم يوسف بدوره، نظر في عيني ريم وتصارعت الأفكار في رأسه، فهو بالطبع لا يريد الانصراف بل يريد أن يقضي معها وقتًا أطول، إلا أن ظروفها

الحالية تحتم عليه أن يغادر بعد أن اطمأن عليها، قطع عليه أفكاره صوت نسرين وهي تدعوه لتناول الشاي وبعض الكيك الذي وضعته أمامه.

حاول أن يعتذر معللًا ذلك بأنه مضطرٌ للمغادرة، إلا أن نسرين أجابته أن هذا لن يحدث، بل عليه أن يقوم بإلغاء أي ارتباطات لديه، فهو سيتناول معهم طعام الغذاء دون نقاش.

كان قلبه يرقص طربًا فها هي حماته المستقبلية -كما يأمل- ترحب به في حفاوة، بل وترفض مغادرته قبل أن يتناول معهم الطعام، لولا الظروف التي تمر بها ريم حاليًا لكان قد تقدم لخطبتها اليوم دون أي تأخير.

استأذنتهم نسرين في الذهاب للمطبخ لتنتهي من إعداد الطعام، وضعت ريم ليوسف ملعقة من السكر في فنجانه ثم ما لبثت أن ناولته إياه، شعر يوسف بالغبطة فما زالت ريم تذكر الشاي كما يفضله.

ارتشف يوسف رشفة من فنجانه ووقع بصره على الكتب الموجودة على المنضدة أمامه، وضع الفنجان على المنضدة والتقط الكتب وبدأ في قراءة عناوينها بصوت مسموع، "وهم الإله" لريتشارد دوكينز، "الإله ليس عظيمًا"[٨٤]

[٨٤] الإله ليس عظيمًا - God Is Not Great: للكاتب كريستوفر هيتشنز وفيه يقيم الدعوى ضد الدين. نُشر الكتاب أولًا تحت عنوان «الإله ليس عظيمًا: الدعوى ضد الدين - God Is Not Great: The Case Against Religion» في المملكة المتحدة، ثم نُشِر في الولايات المتحدة

لكريستوفر هيتشنز [٨٥]، "الله – الفرضية الفاشلة" لفيكتور ستينجر و"أعظم استعراض على وجه الأرض"[٨٦] لريتشارد دوكينز ثانيةً.

سأل ريم إن كانت قرأت تلك الكتب، فأومأت برأسها إيجابًا، تنهد قبل أن يعيد الكتب إلى المنضدة أمامه وأردف قائلًا:

– وهل وجدت ما جاء بها مقنعًا؟

نظرت له مطولًا قبل أن تقول:

– إلى حدٍ بعيد، لقد أجابت عن العديد من الأسئلة التي كانت تدور في خلدي.

تحت عنوان «الإله ليس عظيمًا: لماذا يسمم الدين كل شيء - God Is Not Great: How Religion Poisons Everything» ثم أُعيد نشره بلا عنوان فرعيّ .

يصف الكاتب الدين بأنه عنيف وغير منطقيّ وغير متسامح، ويؤدي للقبليّة والعنصريّة والتعصب. ويدعم موقفه في الكتاب من خلال مزيج من القصص والحكايات التاريخيّة الموثّقة والتحليل النقديّ للنصوص الدينيّة.

[٨٥] كريستوفر إيريك هيتشنز Christopher Hitchens (١٩٤٩ - ٢٠١١م): مؤلف وكاتب وصحفي بريطاني-أمريكي، تضمنت كتاباته نقد للشخصيات العامة مثل بيل كلينتون، هنري كسنجر والأم تريزا .يعتبر مفاهيم الإله أو القوة العليا معتقدات شمولية تقيد الحرية الفردية. حيث إنه يؤيد حرية التعبير والاكتشاف العلمي. أصبحت مقولته الشهيرة «ما يمكن تأكيده بدون دليل يمكن نفيه بدون دليل» معروفةً باسم شفرة هيتشنز.

[٨٦]أعظم استعراض على وجه الأرض - The Greatest Show on Earth: هو هجوم على المؤيدين لوجود الخالق وأتباع "التصميم الذكي" وجميع من يشككون في التَّطور كحقيقة علمية. في هذه الجولة يجمع ريتشارد دوكينز الدليل الذي يدعم التَّطور، من الأمثلة الحية للطبيعة من الصفائح التكتونية إلى علم الوراثة الجزيئية.

سألها: وما هي تلك الأسئلة؟

هزت كتفيها في لامبالاة وهي تجيب:

- دعك من الأسئلة، فالإجابة واحدة عليها جميعًا، وهي التفسير المنطقي الوحيد لما يحدث.

كان يعرف مقدمًا ما ستجيب به، إلا أنه كان يرجو من أعماق قلبه أن يكون مخطئًا، فسألها في حذر:

- وما هي تلك الإجابة؟

أجابته في ثقة: أن الله غير موجود.

بالرغم من توقعه تلك الإجابة إلا أنه قد صُدِم، نظر إليها مطولًا في صمت وتساءل، هل ألحدت ريم حقًا؟ هل من الممكن أن تكون وفاة ابنتها هي السبب فيما آلت إليه الأمور؟ استبعد أن يكون هذا هو السبب الوحيد، بالتأكيد هناك أسباب أخرى تراكمت حتى وصلت الأمور إلى ما هي عليه.

لقد انتعش الأمل في قلبه عندما تحادثا سويًا قبل أيام، وظن أن القدر قد جمع بينهما ثانيةً، لقد أصبح حلمه بالزواج منها قريب المنال بعد أن أضحت كل الظروف مواتية، بالطبع لن يستطيع أن يتزوجها إذا ظلت على موقفها هذا.

تساءل... هل قدر لهما ألا يجتمعا تحت سقف واحد في هذه الحياة؟ أجابه لسان حاله متهكمًا، هذه الحياة!!!

لو ظلت ريم على موقفها فلن يجتمعا معًا في هذه الحياة أو في أي حياة أخرى، ما إن ورد على باله هذا الخاطر حتى أحس بالألم يعتصر قلبه، فها هو يوشك أن يفقد حب حياته مرة أخرى.

هزَّ رأسه وكأنه ينفض عنها تلك الفكرة قبل أن تنتزعه ريم من أفكاره وهي تنادي اسمه، بدا شارد الذهن وهو ينظر إليها قبل أن يتمالك نفسه ويسألها:

- كيف تيقنت من عدم وجود الله؟

ابتسمت في مرارة وهي تقول:

- كل ما تعرضت له طوال حياتي، آخرها وفاة حلا، لقد دعوته كثيرًا ليشفيها وألا يحرمني منها، أقمت الليل وبكيت وأنا أناجيه دون جدوى، لقد فعلت كل ما بوسعي ليستجيب إلا أن شيئًا لم يحدث.

بدا صوتها أقرب للنحيب والدموع تتجمع في مقلتيها وهي تردف:

- بل ازدادت حالتها سوءًا إلى أن فارقت الحياة.

بدا التأثر على وجه يوسف وهو يرى الدموع تنساب على وجنتيها، فحاول تهدئتها قائلًا:

– بالطبع لن أقول لك أنني أعرف ما تمرين به، لأنني لم أمر بذلك الموقف، إن فقد الأبناء هو من أشد الاختبارات التي يتعرض لها الإنسان، والصبر على هذا البلاء له ثوابٌ عظيم يوم القيامة.

جففت دموعها بمنديل ثم قالت في لهجة لا تخلو من مرارة:

– الصبر!! لقد سئِمت هذه الكلمة، لماذا أصبر إن كان هناك إله علَّام الغيوب كما يُقَال؟ لماذا لم يستجب دعواتي ليشفي ابنتي وأصرَّ أن يحرمني منها؟

بصوته الهادئ قال:

– إنه ابتلاء كما قُلت لك وإ...

قاطعته داليا التي كانت تكتفي بالمراقبة، وأشارت لأعلى وهي تقول:

في رأيي أنه لا يوجد هناك إله، وإن وُجِد... فإنه ليس علَّام الغيوب كما تقول ولذلك يأمرنا بالصبر.

رفع يوسف حاجبيه وهو يقول:

– ليس علَّام الغيوب!!

ارتسمت ابتسامة جانبية على شفتيه وهو يردف:

– إذا نظرتِ لنفسك وللكون من حولك فستعرفين جيدًا أنه لا حدود لقدرة الله.

صمت برهة مفكرًا ثم سألها: هل سمعت بالدكتور لورانس براون؟

لم تجبه، فتابع قائلًا:

– هو طبيب أمريكي، كان ملحدًا إلى أن ولدت له طفلة بها مرض قاتل يسمى "ضيق الشريان الأورطي"، هو كطبيب يعلم أنها في أغلب الأحيان ستموت، إلا إذا خضعت لجراحة قلب مفتوح في عمرها الذي لم يتجاوز الساعات، وتتكرر العملية لتوسعة الشريان المزروع كل بضعة سنوات نظرًا لنموها، إلا أنها ستموت في النهاية في سن الطفولة.

رأى طفلته في غرفة العناية المركزة ولون جسدها أزرق يميل إلى السواد نتيجة قلة الأكسجين في الدم وحولها فريق من الأطباء المتخصصين يحاولون إنقاذ حياتها بينما تحمل نظراتهم إليه الكثير من الشفقة.

لقد ترك الأطباء على حالهم وذهب إلى غرفة الصلاة بالمستشفى وصلى صلاة المتشككين، وعاهد الله إذا أنقذ حياة ابنته أن يهديه للدين الحق ولسوف يتبعه.

وما أن فرغ من صلاته وعاد إلى ابنته حتى وجد الأطباء في حالة ذهول وارتباك، فقد عادت ابنته طفلة طبيعية تمامًا ولا تحتاج إلى أي تدخل جراحي.

نظرت له داليا وقالت متهكمة: ومن المفترض أن أصدق هذه القصة؟

مط شفتيه قائلًا:

– تصدقي أم لا، إنه أمر منوط بك، يمكنك أن تتحري عن القصة لتتأكدي بنفسك من صحتها.

سألته ريم: ولماذا حدث معه ذلك؟

أجابها: كان اختبارًا له من الله، وكانت نتيجته أن عاد إلى الطريق الصحيح.

مطت داليا شفتيها وقالت متهكمةً:

– ولماذا يختبرنا إن كان إله فهو يعرف مسبقًا نتيجة الاختبار؟.

سألها في حدة: ولماذا سيدخلك الجنة دون غيرك؟ أين العدل في هذا؟

تجاهل داليا وسأل ريم:

– على أي أساس يتحدد الالتحاق بالكليات لطلاب الثانوية العامة؟

أجابته: على أساس الدرجات التي تحصلوا عليها، وبناءً عليها يتم تحديد الكلية حسب رغبة كل طالب وطبقًا لمجموع درجاته.

أومأ يوسف برأسه وهو يقول:

– بالضبط، كل طالب واجتهاده، لكل مجتهدٍ نصيب، فالاختبار ضروري لتحديد من سيدخل كليات القمة كما يطلقون عليها، ومن سيدخل كليات أخرى.

التفت إلى داليا قائلًا:

– إذا كنا نفعل ذلك في أمورنا الحياتية، فكيف تريدين من الله أن يفعل غير ذلك!؟

أجابته داليا:

– لأنه كما تدَّعِي، علَّام الغيوب ويعرف كل شيء، وبالتالي فهو لا يحتاج لاختبارنا، بل يستطيع أن يحدد مكان كل منا دون اختبار فهو يعرف النتيجة مسبقًا.

أومأ برأسه قائلًا:

– بالرغم من أنه يعرف كل شيء إلا أنه هو العدل، لو فعل كما تقولين، فسيكون هناك عذرًا لأهل النار يوم القيامة [٨٧]، وستكون حجتهم أنهم لم يُختَبَرُوا ولو كانوا اختُبِروا لتجاوزوا ذلك الاختبار[٨٨]. وليس أدل على ذلك من قصة نبي الله موسى مع فرعون، فعلى الرغم من أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وأن

---

[٨٧] {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء، الآية [١٦٥].

[٨٨] تفسير الشيخ الشعراوي: https://www.youtube.com/watch?v=Zt0qIZF3Vos
تفسير بن كثير.

الله يعرف أنه من أهل النار، إلا أنه أرسل إليه نبياه موسى وهارون، وليس هذا فحسب، بل أمرهما ألا يخاطبا فرعون إلا باللين [٨٩،٩٠].

لم تعلق داليا والتفتت إلى ريم التي بدا عليها عدم الاقتناع بما قاله يوسف، فقالت:

- يوسف، أن لست مقتنعة بما تقول، ما اقتنعت به موجود في تلك الكتب التي أمامك.

نظر لها يوسف في ثبات قبل أن يقول:

- ريم أنتِ لستِ ملحدة، أنت فقط مستاءة مما حدث لك، أتفهم شعورك، أرجوكِ لا تنجرفي في هذا الاتجاه فإن عواقبه وخيمة.

بدت ريم منفعلة وهي تقول:

- ولماذا لا أستاء مما حدث؟! كنت طيلة حياتي أؤمن بوجود الله، وعندما احتجت إليه لم أجده، أين هو؟ إذًا فالتفسير المنطقي الوحيد هو أنه غير موجود.

أشار للكتب وهو يقول:

---

[٨٩] {اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ} طه، الآيات [٤٣- ٤٤].

[٩٠] تفسير بن كثير.

– لا تصدقي ما جاء في تلك الكتب، فهي ليست إلا محاولات من أناس ضلوا في محاولة منهم للفت الانتباه والرغبة في العيش بحرية دون قيود أو ضوابط، هناك العديد من العلماء والمفكرين الذين ضلوا الطريق لبعض الوقت قبل أن يمعنوا التفكير في الكون من حولهم ،ومن ثم يتراجعون عن إلحادهم ويعترفون بوجود الإله الخالق.

والأمثلة على ذلك كثيرة منهم الدكتور مصطفى محمود، الدكتور عبد الوهاب المسيري [٩١]، روجيه غارودي [٩٢]، وأنتوني فلو [٩٣] وغيرهم.

هزت كتفيها وقالت: ومن هو أنتوني فلو؟

أجابها:

---

[٩١] الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري (١٩٣٨ - ٢٠٠٨م): مفكر وعالم اجتماع مصري، ويعد من أشهر أدباء ومؤرخي العرب من المعاصرين، وهو صاحب موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" أحد أكبر الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين.

[٩٢] روجيه جارودي - Roger Garaudy (١٩١٣ - ٢٠١٢م): فيلسوف وكاتب فرنسي، أطلق عليه «عقل فرنسا». ولد في فرنسا لأم كاثوليكية وأب ملحد، اعتنق الإسلام سنة ١٩٨٢م بعد رحلة استمرت (٥٠) عامًا من الإلحاد. ألف (٥٤) كتابًا ترجمت إلى (٢٩) لغة، كما قدمت عنه (٢٢) أطروحة جامعية.

[٩٣] أنتوني جيرارد نيوتن فلو - Antony Flew (١٩٢٣ - ٢٠١٠م): فيلسوف بريطاني اشتهر بكتاباته في فلسفة الأديان. كان ملحدًا طوال حياته وألف العديد من الكتب التي تنكر وجود الإله، إلا أنه وفي السنوات الأخيرة من حياته تخلى عن إلحاده وألف كتابا بعنوان "هناك إله". وهو ما اعتبر صدمة قوية في وسط الفكر الإلحادي في العالم، وذلك لأنه ولخمسين عامًا كان يعتبر من أهم مناظري الإلحاد في العالم. تميز فلو بعقليته العلمية في الطرح واستشهاده بقوانين الطبيعة لإثبات آرائه، وقد بدأ يتخلى عن الإلحاد بعد تفحص عميق للأدلة إنتهى بإعلانه بإيمانه بوجود إله.

– لقد كان من أشهر الملحدين في عصرنا الحالي، ظل يحارب فكرة وجود الإله طوال نصف قرن، بل أنه ألَّف العديد من الكتب التي قدم فيها فكره الإلحادي، إلا أنه كرجل علم قادته الأدلة إلى أن للكون خالقًا، فاعترف بخطئه طيلة هذه السنوات وأقر قبل وفاته أنه يؤمن بوجود الإله.

أطالت داليا النظر إلى يوسف قبل أن تسأله:

– لقد تعلمنا خلال دراستنا أنه ما من خطوة يخطوها الإنسان إلا مكتوبة مسبقًا، كل شيء مكتوبٌ، بما فيها مصائرنا بعد موتنا إما إلى الجنة أو إلى النار، إذا افترضنا جدلًا صحة ما تعلمناه من أن هناك جنة ونار، وإن كانت مصائرنا قد تحددت سلفًا، فما ذنب من سيدخل النار؟

ابتسم يوسف في برود وهو يقول:

– الإنسان ليس مسيرًا أو مخيرًا في المطلق، بل أنه مسيرٌ فقط فيما ليس له اختيارٌ فيه ولا يُحاسَب عليه، أنتِ لم تختاري والديك ولا المكان الذي ولِدتِ ونشأتِ فيه ولا اسمك ولا جنسك ولا صفاتك الجسمانية وغيرها من الأمور التي ليس لك يدٌ فيها.

ولكنك مخيرةٌ حتمًا في كل ما يقودك إلى الجنة أو النار، لك مطلق الحرية في أن تؤمني بالله أو أن تكفري، ليس هناك إجبارٌ في ذلك، لكنك بالطبع ستتحملين

نتيجة اختيارك، يمكن للإنسان أن يسرق أو يقتل أو يرتكب المحرمات، لكنه في النهاية سيتحمل نتيجة أفعاله، إن كل ما نفعل معلوم عند الله ولكنه ليس مقدرًا علينا بالإكراه، فكيف سيجبركِ الله على الكفر مثلًا ثم يلقيكِ في نار جهنم!

إن الله يعلم ما فعلتِ وما سوف تفعلين، لا يحده زمان ولا مكان.

لو أنك تشاهدين فيلمًا سبق لك رؤيته، هل بإمكانك تغيير النهاية حتى لو لم تعجبكِ؟ بالطبع لا، أنت تعرفين النهاية ولكنك لا تستطيعين تغييرها.

كذلك الله، فهو يعرف كل خطواتنا ومصائرنا، لكن الفارق هنا أن الله يستطيع التغيير ولكنه لا يُكرِه أحدًا [٩٤]، لقد ترك لنا حرية الاختيار وتَحمُّل النتيجة المترتبة على ذلك.

قطع حديثهم صوت نسرين وهي تخبرهم أن طعام الغداء جاهز، دقائق قليلة وكانوا يتناولون طعامهم في هدوء تخلله بعض عبارات المجاملة من يوسف ممتدحًا الطعام الذي أعدته.

فيما أبدت نسرين إعجابها بالبرنامج الذي يقدمه يوسف، وأنها للأسف قد شاهدت حلقة واحدة فقط على عكس ريم التي تتابع البرنامج أسبوعيًا.

[٩٤] {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} يونس، الآية [٩٩]

نظرت إليها ريم وتضرج وجهها بحمرة الخجل وحملت نظراتها بعضًا من العتاب لوالدتها.

تنقلت نظرات داليا بين ريم ويوسف قبل أن تسأله في نبرة لم تخلو من تحدٍ واضح:

- ألا ترى أن الإسلام دونًا عن باقي الديانات هو ديانة شهوانية اجتذبت الرجال بأن أباحت لهم تعدد الزوجات على عكس سائر الديانات الأخرى؟

بدا الانزعاج على وجه نسرين وحاولت أن تمنع داليا من الاسترسال في كلامها، إلا أن داليا أخبرتها أنها فرصة قد لا تحظى بها مرة أخرى بوجود الأستاذ يوسف معهم لتعرف رأيه في بعض المسائل التي تشغل بالها.

ابتسم يوسف ونظر إلى داليا قائلًا:

- من الواضح أنك لا تعرفين شيئًا عن الإسلام أو أي ديانة أخرى، في أي كتاب قرأتِ أن الإسلام فقط هو الذي يبيح تعدد الزوجات؟

لم تجبه، فتابع قائلًا:

- بدايةً الإسلام لم يأتِ ليبيح تعدد الزوجات بل جاء ليُحِد من ذلك التعدد.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي داليا وهي تقول:

– معك حق والدليل على ذلك أنه يمكنك الجمع بين أربع زوجات في وقتٍ واحدٍ.

تجاهل تعليقها وقال:

– تعدد الزوجات ظاهرة سادت في العديد من المجتمعات قبل ظهور الإسلام، فعلى سبيل المثال، كان للملك رمسيس الثاني «٥٤» زوجة، نبي الله داوود كانت له «٩» زوجات، نبي الله سليمان كانت له ما يزيد عن السبعين زوجة[٩٥].

لم يقتصر الأمر على الملوك والأنبياء فقط، بل أن تعدد الزوجات كان مباحًا عند اليهود حتى القرن الحادي عشر الميلادي، عندما حرمته بعض الطوائف وبقي مباحًا عند البعض الآخر. أما بالنسبة للمسيحية فإنه لا يوجد نصٌ حاسم في هذا الأمر حتى أن المصلح الديني "مارتن لوثر" مؤسس المذهب البروتستانتي قد حدد حالات يمكن للرجل فيها أن يتخذ زوجة ثانية وقال نصًا «لا أستطيع منع رجل من التزوج من عدة نساء إذ أن ذلك لا يعارض شيئًا في الكتاب المقدس»[٩٦].

---

[٩٥] عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: قالَ سُلَيْمَانُ بنُ دَاوُدَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ علَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبيلِ اللَّهِ، فَقالَ له صَاحِبُهُ: إنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، ولَمْ تَحْمِلْ شيءا إلَّا واحِدًا، سَاقِطًا أَحَدُ شِقَّيْهِ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لو قالَهَا لَجَاهَدُوا في سَبيلِ اللَّهِ. قالَ شُعَيْبٌ وابنُ أَبِي الزِّنَادِ: تِسْعِينَ وهو أَصَحُّ» صحيح البخاري رقم: [٣٤٢٤].

[96] Polygamy in Christianity - Wikipedia

إلا أن الإسلام قنَّن تعدد الزوجات، حتى أن غيلان الثقفي عندما أسلم كان له عشر زوجات، أبقى أربعة منهن على ذمته وقام بتطليق بقيتهن[٩٧].

لم يترك الإسلام الحرية المطلقة للرجل ليتزوج بأكثر من امرأة، لقد وضع شرطًا أساسيًا لمن يرغب في الجمع بين أكثر من زوجة، ألا وهو العدل بينهن، وهو شرط أقرب إلى الاستحالة لتحقيقه.

نظر إلى داليا وبصوته الهادئ سألها: هل لديك أي تساؤلات أخرى؟

هزت كتفيها في لا مبالاة وهي تقول: ليس الآن، ربما لاحقًا.

شكر يوسف نسرين وريم على حسن ضيافتها، واستأذن في الانصراف، على أن تكون هناك زيارة أخرى قريبًا عندما تسمح الظروف بذلك.

رافقت نسرين وريم يوسف إلى الباب وما أن انصرف حتى نظرت نسرين لابنتها واحتضنتها في حنان، وهي تدعو الله أن يجمع بين ريم ويوسف. ما إن غادر يوسف حتى ألقت نسرين نظرة على ساعة الحائط ومن ثم نهضت في عجالة وقامت بتغيير ملابسها وغادرت منزلها مسرعة.

***

---

https://en.wikipedia.org/wiki/Polygamy_in_Christianity#Early_Church_period

[٩٧] عن ابن عمر قال: أسلم غيلان الثقفي وعنده عشر نسوة، فقال رسول الله ﷺ: أَمسِكْ أَربَعًا، وَفَارِقْ سَائِرهُنْ. صحيح ابن حبان رقم [٤١٥٧] وصححه الألباني.

مضى بعض الوقت إلى أن لملمت سعديَّة شتات نفسها، قامت بتغيير ملابسها بعد أن اغتسلت وتركت الماء ينساب على جسدها مختلطًا بدموعها التي لم تتوقف لحظةً منذ ما حدث، تذكرت كيف أنها دعت الله كثيرًا لينقذها من زوجها وظنَّت أنه قد استجيبت لدعواتها، ليس فقط بدخوله السجن ولكن أيضًا لقيامه بتطليقها.

لم تنقطع عن الدعاء في صلواتها التي تحافظ عليها منذ نعومة أظفارها، لقد انتهت من الاستحمام والوضوء ومن ثم شرعت في الصلاة والدعاء الذي تخلله الكثير من النحيب بينما دموعها تبلل خديها وهي تدعو الله أن ينقذها وأولادها من براثن زوجها.

أنهت صلاتها في سرعة بعدما تناهى إلى سمعها صوت صفعة مدوية أعقبها سيل من الألفاظ النابية التي أطلقها سيد بصوته الأجش، فخرجت من غرفتها في سرعة لتجد زوجها وأمامه ابنهما وليد، بالرغم من قوة الصفعة إلا أن وليد لم يتزحزح من مكانه بل وقف ينظر إلى أبيه في ثبات.

ذلك الثبات الذي استفز سيد حتى كاد أن يناوله صفعة أخرى، إلا أن سعديَّة حطمت الرقم القياسي في القفز وهي تتجاوز المسافة التي تفصلها عنهما دافعةً ابنها بعيدًا عن زوجها الذي نظر إليها والشرر يتطاير من عينيه.

وبأنفاس متقطعة سألته عما حدث، أجابها أنه أراد إرسال ابنه لشراء السجائر وبعض متطلباته إلا أنه فوجئ به يرفض الذهاب، فأراد تأديبه لفعلته تلك، نظرت إلى وليد الذي بدا متجهم الوجه بينما اصطبغ خده باللون الأحمر جراء تلك الصفعة، جز على أسنانه وعلا صوت أنفاسه وهو يصيح قائلًا:

– كان يريد إرسالي لشراء المخدرات له.

شهقت سعديَّة وخبطت على صدرها بكفها مستنكرة ما أراد زوجها فعله، وصرخت بعلو صوتها أن يفعل ما يريد ولكن بعيدًا عنها وأولادها، وتوعدته أن تذهب إلى الشرطة للإبلاغ عنه إذا ما تكرر منه ذلك.

وقف سيد لا يصدق ما حدث، فكيف لسعديَّة أن تتحلى بهذه الشجاعة لتقف في مواجهته وهو الذي فعل بها ما فعل منذ ساعات قليلة ولم تجرؤ على المقاومة!؟

قبضت سعديَّة على يد وليد وساقته إلى غرفتها وهي تنادي على ابنتيها ليلحقا بها، ما إن أغلقت باب الغرفة عليها وأبنائها حتى تهاوت جالسة على الأرض فلم تقوَ ساقاها على حملها بعد أن وقفت في وجه سيد.

لا تدري كيف واتتها الجرأة لفعل ما فعلته، لم يَخُل بخاطرها قط أنه بإمكانها أن تقف في وجه زوجها بكل جبروته وقوته للدفاع عن أبنائها، ولكن هاهي قد

فعلت، ما أن أدركت هذا حتى تهدلت أنفاسها وانسالت الدموع على وجنتيها ولكنها دموعٌ من نوع آخر، لقد كانت دموع الفرح.

***

دسَّ يوسف المفتاح في باب شقته ليفاجأ أن كالون الباب لم يكن مغلقًا، أخذ يراجع نفسه ويتذكر إن كان قد نسي إغلاقه عندما غادر صباحًا، إلا أنه كان متأكدًا من أنه قد أغلقه، فتح الباب ودلف إلى الداخل في حذر.

كان هناك خيال لأحدهم يتحرك جيئة وذهابًا أمامه، وفيما يبدو أنه يتحدث في هاتفه المحمول بنبرة لا تخلو من عصبية واضحة ويقول لمحدثه أنه يجب أن يجد له حلًا حتى يستطيع المغادرة في أسرع وقت.

ميَّز يوسف صوت أخيه وصاح بلهجةٍ جمعت ما بين الفرح والدهشة:

– أكرم حمدًا لله على سلامتك.

ما إن سمع أكرم صوت أخيه حتى سارع بإنهاء المكالمة واندفع يعانقه وتعالت ضحكاتهما، لامه يوسف على عدم إبلاغه مسبقًا بحضوره ليكون في استقباله بالمطار. إلا أن أكرم أبلغه أنه لم يرد إزعاجه، استرعى انتباه يوسف التغير الذي طرأ على أكرم الذي أطلق لحيته وبدا أنه قد فقد الكثير من وزنه.

أعد يوسف بعضًا من الشاي لهما وجلسا يحتسيانه أمام التلفاز الذي كان يعرض خبر محاولة فاشلة لتفجير إحدى الكنائس والقبض على أحد منفذي تلك المحاولة وهروب اثنين آخرين. تابع يوسف الخبر في اهتمام قبل أن يستنكر تلك المحاولة واصفًا منفذيها بالإرهاب والبعد عن تعاليم الإسلام، نظر يوسف إلى أكرم الذي كان ممسكًا بكوب الشاي في يده وبدا شارد الذهن حتى كاد الكوب أن ينسكب أرضًا. سأله يوسف:

– أكرم، لقد سمعتك تتحدث مع أحدهم على الهاتف تسأله أن يحل مشكلة سفرك، عن أي مشكلة تتحدث؟

تنحنح أكرم وتلعثم قليلًا وهو يجيب أنه كان يتحدث لأحد أصدقائه الضباط في مصلحة الجوازات لمساعدته في استخراج جواز سفر جديد حيث أنه فقد حقيبته وبها الجواز خاصته، علاوة على بعض الأوراق الهامة وذلك أثناء خروجه من المطار.

انتفض جسد أكرم عندما ارتفع رنين هاتفه المحمول، ما إن نظر إلى شاشته حتى نهض من مقعده وبدا عليه التوتر وهو يستمع إلى محدثه ومن ثم سارع بإنهاء المكالمة وأسرع مغادرًا الشقة ويوسف يتابعه بنظراته.

لحظات قليلة ورن جرس الباب مصحوبًا بطرقات عالية، نهض يوسف بسرعة وما إن فتح الباب حتى اقتحم الشقة ثلاثة أشخاص مسلحين، تقدم أحدهم من

يوسف وقدم نفسه أنه ضابط بإحدى الجهات الأمنية. سأله عن أخيه، حاول يوسف أن يبدو متماسكًا إلا أن صوته لم يسعفه وخرج مرتعشًا وهو يقول:

– لقد غادر منذ لحظات.

ابتلع ريقه قبل أن يسأله: هل تورط أكرم في شيء ما؟

أجابه الضابط: لقد كان أحد منفذي محاولة تفجير إحدى الكنائس.

فغر يوسف فاه وكاد أن يسقط مغشيًا عليه لولا أنه استند إلى الحائط بجواره، نظر له الضابط وبلهجة آمرة أخبره أن يأتي معهم. قالها وأعطى أوامره لزميليه باصطحابه.

***

أسدل الليل أستاره وجلست نسرين إلى إحدى الطاولات في ذلك النادي الرياضي، بدت شاردة وهي تفكر فيما حدث منذ أن خرجت من المنزل إلى موعدها، قطع أفكارها صوت طارق الذي حياها قبل أن يسحب كرسيًا ويجلس قبالتها فيما ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه.

ابتسمت نسرين ابتسامةً باهتةً وبادلته التحية، بدت شاحبة مما استرعى انتباه طارق الذي تخلى عن ابتسامته وسألها في قلق إن كانت على ما يرام، لم تجبه نسرين إنما انهارت باكية، حاول أن يهدئ من روعها وسألها إن كانت ريم بخير، فأومأت برأسها إيجابًا.

وبصوت متقطع جراء بكائها قالت:

- إن ريم بخير وإنما هي تبكي حفيدتها حلا.

تنهد طارق والتقط أنفاسه قبل أن يقول:

- لقد ذهبت إلى خالقها وهي في مكان...

قاطعته وهي تنتحب: أنا السبب في موتها.

***

جلس سيد إلى أحد المقاعد خارج الغرفة، واكتست قسمات وجهه بالذهول وهو يفكر فيما حدث، قطع تفكيره صوت طرقات على باب الشقة، استعاد رباطة جأشه ونهض من مقعده ومن ثم فتح الباب ليجد أمامه صلاح زميل الزنزانة، الذي ما إن رآه حتى تهلل وجهه وصاح فرحًا، تعانقا في حرارة ودعاه إلى الدخول.

جلسا سويًا وهنَّأه صلاح بالإفراج عنه وأن هذا بالقطع يستدعي الاحتفال، طقطق سيد بلسانه وأطلق زفرةً حارةً وهو يعتذر لزميله أنه كان ينوي إحضار بعض الحشيش لتلك المناسبة إلا أنه لم يستطع، أطلق صلاح ضحكة عالية وهو يخبره ألا يشغل باله فلقد أحضر معه ما هو أفضل من الحشيش.

سأله إن كان هناك أحدٌ بالمنزل، فأشار سيد إلى الغرفة التي بها زوجته، وأخبره أن زوجته بتلك الغرفة وعليه ألا يشغل باله، فلا يمكن لأحد أن يقطع عليهما احتفالهما.

أخرج صلاح من جيبه كيسًا صغيرًا من البلاستيك به بودرة بيضاء اللون وأخذ يقسمها على ورقة جريدة وسيد يتابعه وعيناه تلمعان، لحظات وكانا يستنشقان تلك البودرة، لم يتمكن سيد من مجاراة زميله فشعر ببعض الدوار وسرعان ما تمدد أرضًا.

ما إن رآه صلاح على هذه الحالة حتى نهض مترنحًا وقد أفقده المخدر اتزانه، دفعه بقدمه فلم يحرك سيد ساكنًا، مسح صلاح أنفه بيده وتوجه إلى الغرفة حيث توجد سعديَّة، دفع الباب ليجدها واقفة خلف الباب تسترق السمع لتعرف ما يحدث بالخارج، ما أن رأته حتى تراجعت خطوة للخلف واتسعت عيناها في رعب.

لقد كان صلاح مخدرًا حتى أنه لم يلحظ وجود وليد وأخواته بداخل الغرفة، تهجم على سعديَّة التي صرخت بعلو صوتها مستغيثة بولدها الذي أخذته غفوة، أيقظته صرخة والدته فهبَّ من غفوته وانقض علي صلاح وأخذ يكيل له اللكمات، فيما اندفعت هي خارجًا وعادت مسرعة وبيدها سكين من المطبخ.

تراجع صلاح للخلف من شدة اللكمات واستل مطواة من طيات ملابسه ملوحًا بها في وجه وليد الذي تراجع للخلف قليلًا فما كان من سعديَّة إلا أن طعنته في كتفه فأفلت المطواة من يده وتراجع خارجًا من الغرفة قبل أن يلوذ بالفرار.

هرعت سعديَّة للاطمئنان على أولادها، ثم خرجت من الغرفة وتسارعت أنفاسها وهي تحدث نفسها أن زوجها هو السبب فيما حدث وأن هذا يجب أن ينتهي الآن، وقفت بجواره وكان مستلقيًا على وجهه، فما كان منها إلا أن انهالت عليه بالسكين وهي تصرخ في هستيريا:

- مت لعنك الله.

وما هي إلا ثوانٍ حتى تشكلت بركة من الدماء حول الجثة، بينما وقف وليد لا يدري ما يفعل، ورددت الجدران صيحات الأختين.

الفصل الثالث

فوجئ طارق بما قالته نسرين، ظلَّ يحملق فيها لبرهة من الوقت قبل أن يتمالك أعصابه ويحاول أن يهدئ من روعها، طلب منها أن تهدأ قليلًا ليفهم ما تقول.

جففت دموعها ثم أخبرته أنها تشعر أنها ليست على ما يرام منذ فترة، وأنها أجلت الذهاب للطبيب لانشغالها بمرض حفيدتها، إلا أنه بعد وفاة حلا ومع ازدياد شدة الألم ذهبت إلى طبيبها الذي طلب منها إجراء بعض التحاليل والفحوصات.

قبل ساعة، كانت على موعد مع الطبيب الذي راجع نتائج التحاليل والفحوصات التي طلبها قبل ذلك، أخبرها أنها تعاني من ورم سرطاني بالمخ ومن المرجح أنه نتيجة عوامل وراثية، صمتت قليلًا وهي تنتحب ثم أردفت أي أنه كما انتقل إليها وراثة فمن المؤكد أنها قد نقلته إلى حلا بدورها، أي أنها هي التي أصابتها بالمرض الذي تسبب في وفاتها.

أغمض طارق عينيه وتنفس الصعداء، لقد ظنَّ بها الظنون، إلا أنه عاد يؤنب نفسه لشكه فيها!؟ ابتسم ومد يده ليمسك بفنجان القهوة أمامه إلا أنه توقف قبل أن تبلغ يده الفنجان واتسعت عيناه في ذعر وهو يحدق في نسرين، ماذا!! فيما يفكر!! لقد انتبه إلى الجزء الأول من كلامها وتجاهل الجزء الأهم، إنها تعاني من ذلك المرض اللعين.

اكتست ملامحه بالخوف وهو يحرك رأسه يمنة ويسارًا في عصبية قائلًا:

– لن أفقدك يا نسرين... لن يحدث هذا.

نظرت إليه بعينين دامعتين وهي تقول:

– لا شيء يمكن أن تفعله يغير قدر الله.

زمَّ شفتيه وهو يهز رأسه، ثم ما لبث أن قال:

– ونِعمَ بالله، بالطبع لا يمكننا أن نغير ما كتبه الله، ما قصدت قوله هو ألا نيأس، بل يجب أن نستشير أطباء آخرين ونبدأ العلاج دون تأخير، قالها وأمسك بهاتفه المحمول وقام بإجراء مكالمة هاتفية.

ما إن أنهى مكالمته حتى تهلل وجهه ونظر إلى نسرين قائلًا:

– كان هذا هو الدكتور منير جرجس، من أكبر أطباء الأورام في مصر، صديق مقرب وأثق في رأيه الطبي، وهو في انتظارنا في عيادته. قبل أن ينهضا وبعيون تنضح بالرجاء قال:

– رجاءً لا تُحَمِّلي نفسك فوق طاقتها بظنك أنك السبب في موت حلا، فإصابتك بهذا المرض لم تكن باختيارك.

همت بمقاطعته إلا أنه استوقفها مردفًا:

– كما قُلتِ أنتِ... هو قدر الله الذي لا مفر منه. أنتِ لم تختاري أن تصابي به أو تنقليه إلى غيرك، فلتحمدي الله على أنه لم يصب أيضًا أحدًا من بناتك.

أحضرت الأشعات والتحاليل من سيارتها قبل أن يستقلا سيارة طارق سويًا بعدما أصر على ذلك، فلم يكن ليتركها تقود في حالتها تلك.

ما إن وصلا العيادة حتى وجدا الدكتور منير في انتظارهما، بعد مراجعة التحاليل والأشعات، طمأنهما بأن أخبرهما أن ما يراه لا يدعو للقلق ولكن لابد من أخذ عينة من ذلك الورم لتكوين صورة كاملة لمعرفة المرحلة التي وصل إليها المرض، ومن ثم تحديد الخريطة العلاجية المناسبة للتغلب عليه.

سأله طارق بصوت حمل الكثير من القلق:

– ألا تحتاج نسرين لإجراء عملية جراحية لإزالة ذلك الورم؟

أومأ منير برأسه إيجابًا وهو يقول:

– بالطبع ستحتاج لهذه العملية في النهاية، ولكن من الضروري معرفة كافة التفاصيل عن الورم حتى لا نفاجأ بما ليس متوقعًا في غرفة العمليات، والغرض من أخذ العينة هو تحديد ما إذا كان الموضوع يحتاج لتدخل جراحي فوري أم سنلجأ إلى العلاج الكيماوي أو الإشعاعي قبل الخضوع لتلك العملية الجراحية.

قام بالاتصال بأحد زملائه بمستشفى الأورام الذي أخذ البيانات المطلوبة وأخبره أن الغرفة ستكون جاهزة لاستقبال السيدة نسرين من صباح الغد إذا ما أرادت.

شكره وأغلق الهاتف والتفت إلى نسرين يخبرها بما قاله زميله، ظهر التوتر عليها إلا أن طارق طمأنها قائلًا:

– لا داعي للقلق، لن أتركك لحظة، ولكن أعتقد أنه ليس هناك مفرٌ من إخبار البنات.

غادرا العيادة سويًا وعادا إلى النادي حيث استقلت نسرين سيارتها واتجهت إلى بيتها بعد أن ودَّعت طارق، كان كل ما يشغل بالها كيف ستخبر بناتها عن حالتها؟ إن وقع الخبر سيكون مؤلمًا لهم وخاصة ابنتها ريم.

ما إن وصل طارق لشقته وقبل أن يغير ملابسه تلقى اتصالًا من الدكتور منير، أتاه صوت الدكتور منير عبر الهاتف يخبره بضرورة توجه نسرين غدًا صباحًا إلى المستشفى

سأله في قلق: ما الذي تخفيه عني؟

صمت لحظة قبل أن يخبره بأن حالة السيدة نسرين لا تحتمل أي تأخير، وأنه لم يرد أن يذكر ذلك أمامها ولكنه فضَّل أن يخبره هو كصديق.

سأله طارق عن نسبة نجاح العملية، فأجابه أنها تختلف من شخص لآخر نظرًا لعدة عوامل منها الحالة الصحية للمريض، وأن النسبة هي (٥٠٪)

***

تعالت الطرقات على باب شقة سعديَّة بينما جلست هي أرضًا بجوار جثة زوجها والسكين في يدها وتبدو في حالة صدمة جراء ما حدث، ما إن سمع وليد الطرقات على الباب حتى ارتكز على ركبتيه في مواجهة والدته وسحب السكين من يدها ثم أمسك بكتفيها وأخذ يهزها محاولًا إخراجها من حالتها تلك.

نظرت إليه بعينين زائغتين فطلب منها أن تسمعه جيدًا، تحدث إليها وهو يمسح بصمات أصابعها من على السكين، أخبرها أنه سيعترف بأنه هو الذي قتل أباه، وسيدخل السجن بدلًا منها.

لقد ضحت كثيرًا من أجلهم وحان الوقت ليضحي هو من أجلها، علاوة على أن شقيقتيه في حاجة إليها، هزت سعديَّة رأسها في هستيريا وحاولت أن تعترض إلا أنه لم يدع لها مجالًا لذلك، نظرت سعديَّة إلى ابنتيها اللتين ارتمتا بين ذراعيها وهما ينتحبان.

قبض وليد على السكين واضعًا بصماته عليها ولطخ يديه بالدماء ومن ثم نهض واقفًا، وبخطوات ثابتة اتجه صوب الباب وفتحه، ما إن رأى الجيران السكين الملطخ بالدماء في يده حتى تعالت الصرخات.

التف بعض الرجال حول وليد الذي لم يحرك ساكنًا بل قام بإلقاء السكين أرضًا، فما كان منهم إلا أن انقضوا عليه مكبلينه، في حين قام أحدهم بالدخول إلى الشقة، وما إن وقع بصره على الجثمان الممدد أرضًا حتى سارع بالاتصال بالشرطة.

***

في غرفة بأحد المقار الأمنية بمدينة القاهرة، جلس يوسف على أحد المقاعد مستندًا بمرفقيه إلى الطاولة أمامه، كانت غرفة رمادية اللون متوسطة المساحة ذات إضاءة منخفضة، لا تحتوي إلا على مقعدين بينهما تلك الطاولة التي استند إليها يوسف، بينما هناك مرآة ضخمة تحتل مساحة لا بأس بها من الجدار إلى يمينه.

نظر يوسف إلى ساعته للمرة العاشرة ثم أطلق زفرةً تنم عن استيائه، لقد مضى عليه في هذه الغرفة عدة ساعات دون أن يقابله أحد، إنه يعرف جيدًا أنهم يمارسون معه نوعًا من أنواع العمليات النفسية حتى ينهار ويبوح بما في جعبته، لكن المشكلة هي أنه لا يعرف شيئًا.

إنه يعرف شيئًا واحدًا ...أنهم مخطئون، لا يمكن أن يكون كريم إرهابيًا بأي حال من الأحوال، إنه أخوه الذي يعرفه جيدًا. صمت لبرهة واستطرد ... هل يعرفه جيدًا بالفعل؟ لقد بدا كريم مريبًا جدًا في تلك السويعات التي رآه فيها قبل أن ينصرف في عجالة، هز رأسه في أسى وتساءل... هل أصبح إرهابيًا حقًا!

ذاك هو التفسير الوحيد المنطقي لما حدث، لقد ظهر كريم فجأة عقب محاولة تفجير الكنيسة التي استطاع بعض منفذيها الهرب، ثم تلك المكالمة التي تلقاها وانصرف على أثرها في سرعة دون أي مقدمات، وأخيرًا حضور عناصر الأمن إلى شقته واقتياده هو إلى هنا.

ماذا سيكون رد فعل ريم إذا ما علمت أن أخاه إرهابي؟ هل ستعتبره إرهابيًا هو الآخر؟ هل سترفض الزواج منه؟ ما أن ورد على خاطره هذا السؤال حتى توقف عن تساؤلاته واعتدل في جلسته، لقد تذكر ما دار بينهما في اللقاء الذي جمعهما مؤخرًا.

حقيقةً... إنها لم تعد ريم التي عرفها، لقد شعر كأنها امرأة أخرى بأفكارها تلك، بالرغم من ذلك فهو لايزال غارقًا في حبها حتى النخاع. لقد كان يظن أن الفرصة قد أصبحت سانحة ليطلب منها الزواج، فإذ به يُفاجَأ بأفكارها تلك، إنه لا يستطيع الزواج بامرأة لا تؤمن بوجود الله، حتى وإن كانت ريم.

إذًا فالحل هو أن يجعلها ترجع عن أفكارها تلك، تلك الأفكار التي بدت له أقرب إلى الاستياء منها إلى الإلحاد، تساءل... هل يستطيع ذلك؟ سيحاول... سيبذل قصارى جهده. عاد ليتكئ بمرفقيه إلى الطاولة أمامه مسندًا جبهته إلى راحتيه، وأطلق زفرةً حارةً وهو يتساءل ... ولكن كيف؟ إنه لا يعرف هل سيخرج من هنا أم لا؟

وقبل أن يسترسل في أفكاره فُتِحَ باب الغرفة ودلف منه أحدهم، التفت إليه يوسف ليجد أنه الضابط الذي أحضره هنا.

جلس الضابط في مواجهة يوسف وبلهجة لا تخلو من صرامة سأله عن أخيه، أخبره أن كل ما يعرفه هو أن كريم يعمل في إحدى دول الخليج ويحضر إلى مصر على فترات متقطعة، بدا الضابط غير مقتنع بما سمعه وانهال بالأسئلة على يوسف.

استغرق الاستجواب بعض الوقت، واختلف نهج الضابط ما بين ترهيب وترغيب، فتارة يصبح لينًا فيشعر يوسف أنه صديقه المقرب الذي يبتغي مصلحته، وتارة يبدو شديد الصرامة كأنه سيقتاده من مكانه إلى غرفة الإعدام مباشرة.

بالرغم من ثبات يوسف وهدوئه أثناء الاستجواب إلا أن التعب قد بلغ منه مبلغه، طلب من الضابط كوبًا من الماء، نهض الضابط من مقعده وغادر الغرفة ويوسف يتابعه بنظراته، لم يمضِ وقت طويل حتى دلف إلى الغرفة عامل البوفيه يحمل صينية عليها بعض من الطعام علاوة على زجاجة من الماء.

ارتشف يوسف قليلًا من المياه ثم أعاد الزجاجة إلى الصينية ولم يَقرُب الطعام، وماهي إلا لحظات ودلف إلى الغرفة شخصٌ يبدو من مظهره أنه يفوق الضابط الأول سنًا ورتبة، جلس إلى المقعد المواجه ليوسف وبابتسامة بسيطة ونبرات هادئة سأله:

- لماذا لم تأكل؟ هل تعتزم الإضراب عن الطعام؟

هزَّ يوسف رأسه نفيًا وهو يقول:

- بالطبع لا، ولكنني لا أشعر بالجوع حاليًا.

قدم الرجل نفسه إلى يوسف أنه العميد رأفت الشيخ، في البداية اعتذر ليوسف على إحضارهم له بهذه الطريقة وأنه شخصيًا من أشد المعجبين بالبرنامج الذي يقدمه، ثم ما لبث أن ناوله الكارت الشخصي خاصته وهو يخبره أن رقمه الخاص مدون على هذا الكارت، ويمكنه الاتصال به في أي وقت.

إنه يتفهم تمامًا أن أخاه قد غُرِّرَ به بواسطة أشخاص يستغلون الدين لتحقيق أهداف سياسية والدين بريء منهم ومن أفعالهم، وأنه يرغب في إنقاذ كريم مما تورط فيه، ولذا من المهم أن يتواصل معه إذا ما حاول الاتصال به.

وأوضح له أن البلاد تمر حاليًا بمرحلة حرجة وأعداء الوطن يتربصون به في كل مكان، وأن السبيل الوحيد للخروج من هذه الأزمة هي بتكاتف جميع أطياف الشعب حتى نعبر هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الوطن.

نهض من كرسيه وأخرج من جيبه هاتف يوسف المحمول، ناوله إياه وأخبره أن أحدهم سيأتي لاصطحابه وإعادته إلى منزله سالمًا.

أخذ يوسف هاتفه المحمول ودسه في جيبه إلا أنه لم ينهض من مقعده بل نظر في ثبات إلى العميد رأفت الذي اكتست ملامحه بالدهشة وهو يسأله:

– ما بك... ألا تريد العودة إلى منزلك!؟

مط يوسف شفتيه وهز كتفيه في لامبالاة، قبل أن يقول:

– لقد أحضرتموني إلى هنا على غير إرادتي وتركتموني عدة ساعات لا أفهم ما يحدث، ناهيك عن الاستجواب الذي خضعت له، والتهم الموجهة لأخي، وفجأة تخبرني أنه يمكنني الذهاب! بهذه البساطة!؟ لن أبرح مكاني قبل أن أعرف ما تعرفونه عن أخي وأظن أن هذا من حقي.

تنهد العميد رأفت وعاد للجلوس إلى مقعده، وصمت قليلًا ليختار كلماته جيدًا، أخبر يوسف أنهم يراقبون كريم منذ فترة وأنه لم يقضِ في عمله في الخليج أكثر من عامين قبل أن يتم استقطابه لينضم لإحدى الجماعات التكفيرية متنقلًا ما بين سوريا والعراق.

وأن مصادرهم تؤكد أن كريم قد تورَّط في العديد من العمليات في العراق وسوريا، ولكن هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها بعملية داخل مصر التي تسلل إليها عبر الأنفاق، وقد تم رصده أثناء هروبه من موقع الحادث، وهرب مرة أخرى قبل وصول القوة إلى المنزل بلحظات.

وأنه يعتقد أن كريم سيحاول الخروج من مصر إلى سوريا وربما ليبيا، بعد أن أصبح معروفًا لدى الجهات الأمنية هنا، ممَّا يجعل من الصعوبة بمكان تكليفه من قبل جماعته بأي مهام أخرى داخل مصر.

أما فيما يخص يوسف، فجميع التحريات أثبتت عدم قيامه بأي نشاط يضعه تحت طائلة القانون، وأن المكالمات القليلة التي دارت بينه وبين كريم لا يوجد بها ما يدينه.

رفع يوسف حاجبيه وفي لهجةٍ مستنكرةٍ سأله:

– هل تقومون بمراقبة جميع المكالمات؟

ابتسم العميد رأفت ابتسامة غامضة ولم يعقب، بل نهض من كرسيه قائلًا:

- لا تتردد في الاتصال بي في أي وقت، ثم أشار إلى الباب وأردف:

- ستجد أحدهم في انتظارك ليصحبك إلى الخارج.

ما إن غادر يوسف مقر الجهاز الأمني حتى استوقف سيارة أجرة متوجهًا إلى منزله، أمسك بهاتفه المحمول وقام بالاتصال بمعد البرنامج إلا أنه لم يجب، فأعاد هاتفه إلى جيبه مرة أخرى، لفت نظره أن سائق السيارة ينظر إليه في تمعن عبر مرآة السيارة الأمامية، فنظر إليه بدوره وسأله:

- هل كل شيء على ما يرام؟

سأله السائق: الأستاذ يوسف، أليس كذلك؟

ابتسم يوسف وهو يقول: نعم أنا يوسف.

حملت نظرات السائق الكثير من الإعجاب وهو يقول:

- أنا من أشد المعجبين ببرنامجك، وأتابعه أسبوعيًا أنا وأسرتي.

ابتسم يوسف وشكر السائق الذي تابع قائلًا:

- ولكن لدي سؤال، لماذا اخترت موضوع الإلحاد في الحلقة الماضية؟ هل يستحق موضوع كهذا أن تخصص له حلقة كاملة!؟

أومأ يوسف برأسه إيجابًا وهو يقول:

- مع الأسف ستُصدَم إذا ما علمت أن أعداد الملحدين في تزايد على مستوى العالم، وهي حقيقة لا يجب تجاهلها، لو أننا لم ندرك حجم المشكلة الحقيقي وتجاهلناها ظنًا منا أنه ليس هناك ما يدعو للقلق، فسنجد في النهاية أن المشكلة قد تفاقمت ولربما طالت بيوتنا نفسها.

ارتفعت عينا السائق في دهشة وهو يردد:

- بيوتنا نحن؟ ألهذه الدرجة؟

أومأ يوسف إيجابًا، فتابع السائق وهو يقول:

- عذرًا فيما أقول أستاذ يوسف، لو أن المشكلة بهذا الحجم والإلحاد منتشر في العالم أجمع، أتظن أنك ستستطيع أن تغير العالم بمفردك؟

هز يوسف رأسه نفيًا وهو يقول:

- بالطبع لا... لا أحد يمكنه ذلك ولا أزعم أنني أستطيع، ولكن ما أفعله إن كان سببًا في هداية شخص واحد فقط فهذا يكفيني، إذ ربما يساهم ذلك الشخص في هداية آخر، وهكذا دواليك.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى وصل يوسف إلى منزله، شكر السائق ونقده أجرته بعد عدة محاولات حيث كان السائق يأبى أن يتلقى أجرًا نظير تلك التوصيلة، إلا أنه إزاء إصرار يوسف لم يجد مفرًا من أن يذعن لرغبته.

ما إن دلف يوسف إلى شقته حتى أخذ حمامًا ساخنًا وأدَّى ما فاته من صلاة، لم يشعر بحاجة لتناول الطعام فتوجه إلى غرفة نومه وألقى بجسده على فراشه وهو يتذكر تفاصيل ما حدث، تساءل ... ما الذي حدث لكريم؟ كيف لم يلاحظ طوال تلك المدة التغير الذي طرأ على أخيه؟ إنه بالطبع يلوم نفسه على ما حدث، فهو أخوه الأكبر وهو المسئول عنه وخاصة بعد وفاة والديهما.

أغمض عينيه محاولًا الاسترخاء، تذكر أنه اتصل بمعدِّ برنامجه إلا أنه لم يجب، والغريب أنه حتى لم يعاود الاتصال به وهي ليست من عادته، اعتدل جالسًا في فراشه وأمسك بهاتفه المحمول واتصل به ثانية، أتاه صوته عبر الهاتف وهو يقول بصوت خفيضٍ أقرب إلى الهمس:

– عفوًا أستاذ يوسف لا يمكنني التحدث الآن.

بدا الاندهاش على يوسف من أسلوب المعدّ فسأله:

– ماذا يحدث؟ ولماذا تهمس هكذا؟

صمت الرجل قليلًا كأنه لا يجد ما يقول ثم حسم أمره قائلًا:

- لأننا نقوم بإعداد حلقة الغد مع الشيخ أسامة.

وبصوت يحمل مزيجًا من الغضب والدهشة سأله: الشيخ أسامة؟.

هل سيحلُّ الشيخ ضيفًا على البرنامج؟ ولماذا لم يتم إبلاغي بهذا؟.

أجابه في سرعة وكأنه يلقي حملًا ثقيلًا عن كاهله:

- بناءً على أوامر إدارة القناة تم استبعادك من البرنامج وسيقوم الشيخ أسامة بتقديم البرنامج بدلًا منك.

***

قضى وليد ليلته في غرفة الحجز بقسم الشرطة تمهيدًا لعرضه على النيابة في الصباح، وقد أصرَّ على أقواله التي قُيدَت في المحضر بأنه هو من قتل أبيه، على الرغم من أنه متهمٌ بقتل أبيه إلا أنه لقي بعض التعاطف، حيث كانت سمعة أبيه معروفة لدى الجميع.

أمام النيابة أصرَّ وليد على أقواله فأمرت النيابة بحبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق لحين ورود تقرير الطبيب الشرعي، وخارج مكتب وكيل النيابة جلست سعديَّة أرضًا وهي في حالة يرثى لها، وكانت تجهش بالبكاء وهي تلطم خديها وتنوح قائلة إن ابنها بريء وتدعو على زوجها بأن تكون النار مثواه.

كان معها إحدى جاراتها التي حاولت أن تهدِّئ من روعها دون جدوى، ما أن فُتِحَ الباب وخرج منه وليد برفقة أحد الجنود حتى هبَّت واقفة واندفعت تحتضنه وتُولول في هستيريا وتقول إنه بريء، ولن تتركه هكذا وستعترف بكل شيء، إنه ذنبها هي ولابد أن تتحمل نتيجة فعلتها.

وضع وليد يده على فمها محاولًا إسكاتها وهو يقول لها إن ما تفعله لن يفيد في شيء بل إنه سيزيد الأمر سوءًا، وستكون عاقبته أن يُزج بهما في السجن سويًا، وقبَّل رأسها قبل أن يخبرها أنه من الأفضل أن تحضر له محاميًا ليترافع عنه، ذلك هو ما يمكن أن تفعله.

اصطحبه الجندي إلى الحجز تتبعه نظراتها وعويلها، سحبتها جارتها من يدها إلى خارج مقر النيابة، ناولتها زجاجة مياه فشربت منها سعديَّة قليلًا وأخذت تنتحب وجارتها تواسيها وتربِّت على كتفها، ومضى بعض الوقت حتى هدأت سعديَّة وتمالكت نفسها.

لم تستغرق الكثير من الوقت في التفكير حتى استقرت إلى أنها لابد أن تذهب للسيدة ريم وتطلب منها أن تذهب معها إلى مكتب المحامي الخاص بها فهو الأمل الوحيد لابنها.

***

جلست نسرين وريم يتناولان طعام الإفطار سويًا وبدت الأولى شاردة الذهن، فسألتها ريم إن كان كل شيء على ما يرام، فالتفتت إليها قائلة:

- هل تقولين شيئًا؟

ابتسمت ريم وهي تقول:

- لقد بتِّ شاردة الذهن كثيرًا هذه الأيام، ماذا هنالك؟

غمزت بعينها وهي تردف قائلة:

- هل هو الأستاذ طارق؟

ابتسمت نسرين ابتسامةً باهتةً وصمتت طويلًا، كانت تريد أن تجد طريقة لإبلاغها الخبر، هي تعرف ابنتها جيدًا، إنها لن تحتمل هذا الخبر وخاصة مع ما مرت به مؤخرًا. تنحنحت قبل أن تسألها:

- هل تواصلت مع أُختيك مؤخرًا؟

أومأت برأسها إيجابًا:

- أميرة ستحضر مع أولادها إلى مصر الشهر القادم، وسيبقى زوجها في السعودية فلن يستطيع الحصول على إجازة من المستشفى الذي يعمل به، أما رحاب فهي بخير وستأتي وأولادها لزيارتنا اليوم.

صمتت لبرهة مفكرةً، حسنًا.. من الأفضل أن تنتظر حتى تأتي ابنتها رحاب لتخبرهما سويًا، تنهدت قائلة:

- ما أخبار يوسف؟ هل من جديد؟

هزَّت ريم رأسها نفيًا، فأردفت والدتها قائلة:

- هل يمكنك أن تتصلي به؟ أريد أن أستشيره في أمر ما.

علَت الدهشة ملامح ريم وهي تهتف:

- يوسف!! منذ متى...

قاطعها صوت رنين جرس الباب، نظرت إلى أمها وهي تقول:

- لابد من أنها داليا، فهو موعد حضورها المعتاد، ونهضت لتفتح الباب فإذا بها تجد سعديَّة تقف أمامها في حالة يرثى لها.

ما إن دلفت سعديَّة إلى الداخل حتى أجهشت بالبكاء ولم تستطع أيًّا منهما أن تفهم حرفًا مما تقول، أجلستها نسرين على أحد المقاعد فيما أحضرت لها ريم كوبًا من الماء، شربته كله دفعةً واحدةً، هدأت سعديَّة قليلًا وقصَّت عليهما ما حدث بالتفصيل.

فغر كلاهما فاههما، واتسعت عيونهما وهما يستمعان لسعديَّة إلى أن انتهت من سرد قصتها، سألتها نسرين مستنكرة:

- كيف واتتك الجرأة لقتله؟.

زفرت ريم في ضيقٍ وهي ترد نيابة عن سعديَّة بصوتٍ يحمل القليل من الحدَّة قائلة:

- وماذا كنتِ تريدين منها أن تفعل؟! لقد اغتصبها وكاد يرسل ابنها لشراء المخدرات غير عابئ بما قد يحدث له، ولم يراعِ حُرمة بيته ودعا صاحبه لتعاطي المخدرات، وهذا الأخير لم يتوانَ لحظةً عن محاولة اغتصابها هو الآخر، لولا عناية الله ما كان لأحدٍ أن يعلم ما يمكن أن يحدث، لربما كان اغتصبها هي وبناتها.

نظرت لها نسرين وابتسمت وهي تردد: عناية الله!!

طقطقت ريم بلسانها وأشاحت بيدها قائلة:

- إنها مقولة اعتدنا عليها، قلتها بحكم العادة لا أكثر، هلا اتصلتي بالأستاذ طارق لعلَّه يجد لسعديَّة مخرجًا من هذه الورطة؟

سارعت نسرين بالاتصال، وبدا صوته متلهفًا وهو يقول:

- كيف حالك اليوم؟ هل أخبرتِ البنات؟

كان الصوت مرتفعًا بعض الشيء فبدا الارتباك على ملامحها وريم تنظر إليها وقد بدا أنها سمعت ما قاله، أسرعت تخفض درجة الصوت، وتلعثمت قائلة:

– ليس هذا بالمهم الآن.. هناك موضوع آخر يخص سعديَّة.. أظن أنك تذكرها.

أجابها بأنه يذكرها بالطبع، فتابعت قائلة: هل أنت في المكتب؟

أجابها أن لديه جلستين بالمحكمة اليوم، وسيكون متواجدًا بالمكتب مساءً، سألته إن كان بإمكانه أن يعرج عليهم بالمنزل بعد انتهاء عمله بالمحكمة، سيكونون جميعًا في انتظاره. اتفقا على ذلك على أن يتصل بها عقب انتهاء الجلسات.

أخذت ريم تهدئ من روع سعديَّة وتطمئنها أن الأستاذ طارق لن يدخر جهدًا في مساعدة ابنها وليد، بالرغم من أن ريم كانت مع سعديَّة فيما فعلت إلا أن نسرين كان لها موقف مختلف، وتساءلت كيف يمكن أن يتحوَّل المرء من حَملٍ وديعٍ إلى قاتل فجأة دون مقدمات؟ هل إزهاق الروح بهذه السهولة؟، إنها لا تلتمس العذر لسعديَّة في فعلتها تلك، إلا أنها كأم تتعاطف معها لأنها فعلت ذلك حماية لأبنائها.

ارتفع رنين جرس الباب ثانية، فتحت ريم الباب لتجد صديقتها داليا التي كانت ترى سعديَّة للمرة الأولى، لوَّحت بكفها وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة ودودة، قبل أن تأخذ ريم بيدها إلى غرفة المعيشة حكت لها في عجالة عن سعديَّة وما عانته من زوجها وما آلت إليه الأمور، وما إن انتهت حتى اتسعت عينا داليا في دهشة وكأن ريم تقص عليها أحداث فيلم سنيمائي لا يمكن أن يمتَّ للواقع بِصلة.

أخبرتها ريم طلب والدتها أنها تحتاج يوسف في أمر ضروري، فمطت شفتيها متعجبة وهزت كتفيها وأخبرتها أنه من الممكن أن والدتها لا تريد أن تضيع الوقت وتريد أن تقربكما من بعضكما البعض لإصلاح الخطأ الذي ارتكبه والدك منذ عدة سنوات، لقد كنت موجودة آنذاك وأذكر حالتك النفسية حينها، لربما تريد والدتك أن تفعل ما يسعدك.

حملت نظرات ريم بعض العتاب لصديقتها وهي تقول:

- تسعدني!! لا أظن أن هناك ما يمكن أن يسعدني، لقد كانت حلا هي سعادتي وقد ذهبت إلى غير عودة، وفرَّت دمعة حارةً من مقلتيها فسارعت تمسحها بكفها.

ربتت داليا على كتف صاحبتها التي أمسكت بمحمولها وشرعت في الاتصال بيوسف.

***

لم يكد يوسف يفرغ من صلاته إلا وارتفع رنين هاتفه المحمول فالتقطه في لهفةٍ، لقد كان ينتظر مكالمة من صديقه مخرج البرنامج يخبره فيها بالسبب الذي دفع إدارة القناة لاستبعاده.

ما إن رأى يوسف اسم ريم على شاشة محموله حتى اختلطت المشاعر داخله ما بين فرحة بمكالمتها وخوف من أن تكون قد عرفت ما تعرَّض له.

استمع إلى صوتها المحبب عبر الهاتف وهي تخبره بضرورة الحضور عاجلًا إلى منزلها حيث إن أمها تريد استشارته في أمرٍ ما رفضت إخبارها عنه، فأخبرها أنه سيكون عندها بأسرع ما يستطيع.

ما إن أنهى يوسف المكالمة حتى سارع بالاتصال بصديقه المخرج فلم يكن يطيق الانتظار، أبلغه صديقه أنه لم يعرف على وجه التحديد سبب هذا القرار، إلا أن ما يتردد في أروقة القناة أن هذا القرار قد اتُّخِذ بعدما وردت للإدارة أخبار تتعلق بأخيه كريم.

أنهى يوسف المكالمة وأطرق برأسه مفكرًا، كيف عرفت الإدارة بأمر كريم؟ إنه لا يستبعد احتمالية أن تكون هناك أوامر وردت لإدارة القناة باستبعاده على خلفية تورط أخيه في تلك العملية الإرهابية، لقد أخذوه بذنب أخيه، فإدارة القناة لا تريد أن تحوم حولها الشبهات.

إنه لا يلومهم على ذلك، لكن ما يلومهم عليه هو الطريقة المهينة التي تم استبعاده بها بدلًا من تكريمه وتوجيه الشكر له على الفترة الماضية، وربما إنهاء التعاقد معه بشكل يحفظ كرامته، اختارت الإدارة أن يتم استبعاده بتلك الطريقة وأن من يبلغه قرار الاستبعاد هو معد البرنامج، أي إهانة تلك؟ أطلق زفرةً حارةً

من أعماقه وهزَّ رأسه كأنه ينفض عنها تلك الأفكار ومن ثم سارع بارتداء ملابسه متوجهًا إلى بيت ريم.

***

استغرق يوسف بعض الوقت حتى وصل إلى بيت ريم، قرع الجرس وقبل أن يفتح الباب إذا بشخص آخر يقف خلفه ببضع خطوات، التفت إليه يوسف فحيَّاه بابتسامة بسيطة، فتحت نسرين الباب لتجد يوسف وطارق أمامها، علَت الدهشة ملامحها وهي تسألهما إن كانا يعرفان بعضهما البعض، هزَّا رأسيهما نفيًا.

دعتهما للدخول وقامت بتعريف كليهما على الآخر، اصطحبت طارق إلى غرفة الصالون إلى حيث تجلس سعديَّة، بينما عادت مرة أخرى إلى يوسف الذي وقف ينتظرها بناءً على طلبها، أبلغته أنها تريده في موضوعٍ هامٍ، ستتحدث معه فيه بعدما تنتهي من سعديَّة، إلا أن هذا الموضوع يجب أن يظل سرًا بينهما، قالتها ومن ثم اصطحبته إلى غرفة المعيشة حيث تجلس ريم وداليا.

ما إن وقعت عينا يوسف على ريم حتى انفرجت أساريره وصافحها في حرارة، مجرد رؤيتها أنسته ما تعرَّض له البارحة، اتسعت ابتسامة ريم وهي تصافحه وتوردت وجنتيها خجلًا، التفت إلى داليا واكتفى بإيماءة من رأسه وعلى شفتيه ابتسامة باهتة استفزت داليا التي قالت:

– ما بك يا يوسف؟ ألست سعيدًا برؤيتي؟

مطَّ يوسف شفتيه قائلًا:

– على العكس من ذلك تمامًا، فعندما أراكِ أحمد الله على ما أنا أنعم به عليّ.

نظرت إليه في وسألته في حذر: وما هو ذاك؟

أجابها في هدوء: العقل.

تطاير الشرر من عينيها وصاحت: ألا يوجد لدي عقل؟ هل أنا مجنونة؟

تدخَّلت ريم في محاولة لتهدئة الأجواء، إلا أن يوسف نظر إلى داليا وأجابها في هدوء:

– بالطبع لديك عقل لكنك لا تستخدمينه.

ثارت في وجهه وهي تقول:

– بل أنت الذي لا تستخدم قطعة اللحم التي تقبع داخل جمجمتك بلا فائدة، أتظن أنك تعرف كل شيء؟ أنظر حولك وقل لي أين هو الله؟ لماذا خلقنا؟ بالطبع ستجيب.. لكي نعبده، حسنًا.. لماذا لا يظهر لنا؟ لو كان موجودًا حقًا وظهر لنا فسيعبده العالم أجمع دونما أدنى تردد وستتحقق الغاية التي خلقنا من أجلها.

لكنه لن يظهر لأنه ببساطة ليس موجودًا، انظر للعالم من حولك، الغالبية العظمى لا تعبده، أتدري لماذا؟ لأنهم عرفوا الحقيقة كما عرفتها أنا، تلك الحقيقة الغائبة عنك.

تنهَّد يوسف قبل أن يقول: بالطبع أنت على حق.

نظرت له ريم في دهشة وهي تهتف: ماذا؟!.

تجاهلها يوسف وأردف قائلًا:

– كان من الأسهل أن يظهر الله لنا فنعبده جميعًا، إلا أن هناك عدة أمور تحول دون ذلك، منها أن الإيمان بالغيبيات هو الطريق لدخول الجنة، فإذا لم تؤمني بالله إلا إذا رأيته، فعلام ستُثابين إذًا؟، ومنها أيضًا أن أجسادنا لن تتحمل رؤيته.

ولعلك تعرفين قصة نبي الله موسى عندما طلب من الله أن يراه، لكن الله أخبره أن جسده لن يتحمل ذلك، وأخبره أنه سيتجلَّى للجبل فإن ثبت الجبل وسكن فسوف يراه، وإن لم يسكن فإنه لن يطيق رؤية الله، إلا أن الجبل لم يتحمل وانهار[٩٨،٩٩]، فإذا كان الجبل لم يطق ذلك، فهل تعتقدين أننا ستفعل؟

أجابته متهكمةً:

---

[٩٨] {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} الأعراف، الآية [١٤٣].

[٩٩] تفسير القرطبي.

– بالطبع أعرف القصة، لكن إذا كانت المعضلة في رؤية الإله هي أن أجسادنا لن تتحمل ذلك، وبما أنه على كل شيء قدير حسبما تدَّعي، فلماذا لم يجعل أجسادنا قادرة على التحمل؟.

أجابها قائلًا:

– إن مُتع الدنيا لا تقارن بالنعيم في الجنة، وإن أعظم متعة في الجنة هي رؤية الله سبحانه وتعالى، فمهما رأيتِ في الجنة فإنه لا يعد شيئًا مقارنة بالنظر إلى وجهه الكريم[١٠٠].

هي مكافأة لأهل الجنة أعظم من دخول الجنة نفسها، إذا ما حصلنا على هذه المكافأة في الدنيا فستصبح مُتع الجنة بالنسبة لنا أقل من متع الدنيا وهذا لا يُعقَل، ثم كيف لنا أن نتلقى مكافأة مثلها ولم نعمل ما يجعلنا نستحقها؟ كيف لنا أن نتلقى أجرًا عن عمل كُلفنا به ولم نُنهه بعد؟

نظرت له داليا مطولًا قبل أن تقول:

– لقد وردت قصة موسى في القرآن بالفعل، لكنني لا أؤمن بالقرآن فهو شأنه كشأن التوراة والإنجيل، كلها مؤلفات ناتجة عن عقل بشري.

---

[١٠٠] عَنْ صُهَيْبٍ بن سَنَانْ الرُومِي رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ. فَمَا أُعْطُوا شيئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». صحيح مسلم.

نظر إليها يوسف وبدا عليه الامتعاض ممَّا سمع، قبل أن يقول:

– أتريدين حقًا الخوض في هذا؟ لقد قُتِلَ هذا الموضوع بحثًا، وهناك العديد من الإثباتات التي تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أنه كلام الله، وكلها لعلماء لهم ثقلهم في المحافل العلمية، فهناك مثلًا العالم الكندي كيث مور[١٠١]، الذي يعد واحدًا من أبرز علماء التشريح والأجنَّة في العالم.

لقد قال إن كل ما قرأه في القرآن عن نشأة الجنين وتطوره داخل الرحم ينطبق على ما يعرفه كعالم من علماء الأجنَّة، خاصة وأن المراحل السبع التي ذكرها القرآن[١٠٢]، هي ذاتها المراحل التي أثبتها العلم والتي لم تُكتشف إلا في أواخر القرن العشرين.

---

[١٠١] كيث مور - Keith L. Moore (١٩٢٥ - ٢٠١٩م): أستاذ علم التشريح والأجنة، عمل بالعديد من الجامعات كما رأس العديد من الجمعيات الدولية مثل: جمعية علماء التشريح والأجنة في كندا وأمريكا علاوة على مجلس اتحاد العلوم الحيوية. انتخب عضوًا في الجمعية الطبية الملكية بكندا، والأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا، والاتحاد الأمريكي لأطباء التشريح، كما شارك في تأليف عدة كتب في مجال التشريح الأكلينكي وعلم الأجنة.

[١٠٢] {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} المؤمنون، الآيات [١٢-١٤]

إن لم يكن هذا هو كلام الله، فكيف عرف الرسول ﷺ مراحل تكون الجنين بهذه الدقة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان؟ إن هذا الأمر لم يكتشفه العلم الحديث إلا مؤخرًا وبواسطة أجهزة متطورة.

ولم يكن ذلك هو الإثبات الوحيد، فهناك أيضًا ما أثبته العلم الحديث في نهايات القرن الماضي أن النهايات العصبية موجودة بالجلد، وليست بكامل الجسد، فقد كان الاعتقاد السائد منذ عدة قرون أن الجسم كله حسَّاس للألم حتى كشف علم التشريح اليوم دور النهايات العصبية المتخصصة في نقل أنواع الآلام المختلفة.

والله يقول إنه كلما نضجت جلود الكفار في النار بدَّلها الله لهم ليشعروا بالعذاب[١٠٣]. لماذا ذكر الله الجلد دونًا عن سائر الجسد، كان من الممكن أن يقول كلما نضجت أجسادهم أو لحومهم، إلا أنه اختار الجلد.

كيف عرف رسول الله ﷺ ذلك، وهو الأمر الذي لم يكتشفه العلم الحديث إلا مؤخرًا؟.

---

[١٠٣] {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} النساء، الآية [٥٦]

لقد كانت تلك الحقائق سببًا في تيقن العديد من العلماء أن هذا القرآن ليس من تأليف بشر، وإنما هو من عند قوةٍ عليا تفوق إدراكهم البشري، ألا يُعد ذلك إثباتًا كافيًا بالنسبة لك؟

همَّت داليا بالرد إلا أنها لم تجد ما تقوله، التفت يوسف إلى ريم قائلًا:

- ريم... أما آن الأوان لتراجعي نفسك؟ لقد تعرضتِ إلى صدمات عدة، أتفهم ذلك، ولكن الإلحاد ليس هو الحل، بل الحل في القرب من الله وليس البعد عنه.

هل أصبحت أحسن حالًا ببعدك عنه؟ هل وجدت الهدوء النفسي الذي تبحثين عنه؟ أشك في هذا، إن الإلحاد لا يقودك إلى ما تنشدين، بل على العكس من ذلك تمامًا، إن الدراسات الحديثة تشير إلى أن الملحدين هم أشد الناس يأسًا وإحباطًا، وهو ما يُفسر أن أعلى الدول في نسب الانتحار هي السويد والتي يوجد بها أعلى نسبة إلحاد، هل هذا من قبيل المصادفة؟.

إن الملحد لا ينام ملء جفنيه ليلًا سعيدًا بإلحاده، على العكس من ذلك تمامًا، إلا أنه لن يعترف بهذا مطلقًا، أشار إلى داليا وتابع قائلًا:

- وأشك أن داليا ستخبرك ذلك.

نظر في ثبات إلى عينيها وهو يقول:

– ريم أنت تعرفين حقيقة مشاعري تجاهك، أنت ريم... ريم التي أحببتها بكل جوارحي، والتي أتمنى أن تكون زوجتي اليوم قبل الغد، ولكن كم من الوقت سنعيش سويًا؟ ١٠ سنوات... عشرين عامًا؟ أيًا كانت المدة... فهي سنوات معدودة.

يا ريم لا يكفيني عمرٌ فوق عمري لكي أشبع منك، لن يكفيني إلا أن نكون سويًا إلى الأبد، وهو لن يحدث إلا في الجنَّة، تلك الجنَّة التي أتمنى أن يجمعنا الله فيها سويًا، كما أدعوه أن يجمعنا في حياتنا هذه.

تنهَّدت ريم وهي تسأله:

– وماذا إن لم تكن هناك جنَّة ولا حياة أخرى؟ فلنستمتع بحياتنا، وليعش كلٌ منا بمعتقداته.

وبصوتٍ يقطر ألمًا قال:

– تعرفين أنه لا يمكنني هذا يا ريم، إن فعلت ذلك، فكيف سأقابل الله يوم القيامة؟.

كانت داليا تراقبهما في صمتٍ إلى أن قالت:

– يوسف دعك من هذه الأفكار، ليس هناك قيامةٌ ولا جنةٌ ولا نارٌ، فلتعيشا حياتكما كيفما يحلو لكما قبل أن ترحلا عن هذه الحياة وتجد أنك قد أضعت عمرك هباءً وأنه ليس هناك الجنَّة التي تتمنى وإنما هو ظلامٌ دامسٌ.

ابتسم يوسف وهو يقول:

– إن كان ما تقولين صحيحًا، فليس هناك ما أخسره، لأنني لن أشعر بشيء بعد وفاتي وإنما هو ظلامٌ دامسٌ، لكن المشكلة ماذا ستفعلين أنتِ إذا ما متِ ولم تجدي ذلك الظلام الذي تتحدثين عنه؟ بل وجدتِ أن هناك ملائكة وجنةً ونارًا وبالطبع هناك إله.

***

انتهت سعديَّة من سردِ ما حدث على طارق الذي أنصت إليها في اهتمام قبل أن يخبرها بأنها إذا ما اعترفتِ بقتل سيد فلسوف يتم اتهامها بالقتل العمد نتيجة قيامه باغتصابها، فجميع الشواهد تؤكد أن هذه الجريمة كانت بدافع الانتقام وليس دفاعًا عن النفس أو ما شابه، علاوة على أنه ليس هناك في القانون المصري ما يجرِّم اغتصاب الزوج لزوجته.

أما بالنسبة لوليد، هي مهمة صعبة، ذلك لأن القتيل أبوه، لن يرغب القاضي في إصدار حكمٍ مخففٍ لئلا يتم اتهامه بالتشجيع على تكرار مثل ذلك النوع من الجرائم.

أخذت نسرين تهدِّئ من روع سعديَّة التي علا نحيبها ما إن سمعت ما قاله طارق، التفتت إليه وأخبرته أنه لابدَّ من وجود ما يمكن فعله وأنها واثقة أنه لن يدَّخر جهدًا في تلك القضية.

أومأ برأسه وهو يخبرها أنه سيبذل قصارى جهده وسيتوجه غدًا صباحًا إلى مقر النيابة للاطلاع على محضر الأقوال وكذا مقابلة وليد والاتفاق معه على الخطوات القادمة.

استأذنها في الانصراف لارتباطه بموعد مع أحد عملائه، نهض واقفًا ورافقته نسرين إلى الباب وقبل أن تفتحه سألها إن كانت أخبرت بناتها عن حالتها الصحية؟ فهزَّت رأسها نفيًا، طلب منها أن تخبرهم فليس هناك وقت لتضيعه، والمستشفى في انتظارها باكر بعدما قام هو بكافة الترتيبات اللازمة.

غادر طارق وهمَّت سعديَّة بالمغادرة، إلا أن نسرين استوقفتها وأخبرتها ألَّا تقلق بشأن تكاليف القضية كما قامت بإعطائها مبلغًا من المال ليعينها في الفترة القادمة.

***

بدا الوجوم على وجه ريم وهي تنظر ليوسف الذي لاحظ تعبيرات وجهها فتابع قائلًا:

– نعم لابد أن تفكري جيدًا في هذا السؤال، ماذا إن كنتِ مخطئة ووجدتِ أن كل ما تنكرين هو حقيقة مؤكدة، ولكن بعد فوات الأوان؟

التفت إلى داليا قائلًا:

– داليا... على الرغم من أنني أثبت لك بحقائق لا جدال فيها أنه لابد من وجود إلهٍ يدير هذا الكون، إلا أنكِ ما زلت تتمسكين بفكرة عدم وجوده! بالطبع لك حرية اعتناق الفكر الذي تريدين ففي النهاية كل منا سيتحمل نتيجة أفعاله.

قالت في عصبيةٍ:

– بالطبع كلٌ منا سيفعل، فأنا أستمتع بحياتي وليس هناك من ينغصها عليّ، أنام وأصحو وقتما يحلو لي، ليس هناك من يملي على أفعالي، تاركة وراء ظهري الكثير من التقاليد السخيفة كتغطية الشعر وارتداء الملابس الفضفاضة وعدم وضع مساحيق التجميل.

على عكس الدين الذي يأمر المرأة بأن تفعل كل ذلك، لا لشيء إلا لعدم إثارة غرائز الرجل، وما ذنبنا نحن؟ إنه حقًا مجتمع ذكوري، الرجل يفعل ما يحلو له، بينما المرأة مكبلة بالقيود... فليغضوا أبصارهم، أليس ذلك ما يأمرهم به دينهم؟.

ابتسم يوسف وهو يقول:

- لقد أجبت على نفسك، إن الدين يأمرنا بغض البصر، ومن لم يفعل فليتحمل نتيجة أفعاله.

فُتِحَ الباب ودخلت منه نسرين التي ابتسمت ما إن رأت يوسف الذي نهض من مقعده مرحبًا بها، جلست إلى أحد المقاعد ونظرت لريم قائلة:

- ألم تقدمي شيئًا ليوسف بعد؟

ارتبكت ريم ثم نهضت في سرعة وهي تقول:

- عذرًا يا يوسف فقد اندمجنا في الحديث، نهضت داليا بدورها واعتذرت بأنها لابد أن تغادر لشراء بعض احتياجاتها.

ما إن غادرت ريم وداليا حتى التفتت نسرين إلى يوسف وهي تقول:

- يوسف... ربما لم تكن هناك فرصة سانحة لأعرفك جيدًا ولكنني لمست فيك دماثة الخلق ومشاعرك الصادقة تجاه ريم، لهذا أريد أن أطلب منك شيئًا.

صمتت قليلًا قبل أن تردف:

- لا أريد أن أخوض في تفاصيل، ولكنني اكتشفت مؤخرًا أنني مريضة بالسرطان وسأخضع لجراحة في المخ غدًا أو بعد غد، لا أعرف هل سأنجو منها أم لا، ريم لا تعرف شيئًا عن ذلك.

أريدك أن تعِدُنِي ألا تترك ريم وحدها، كن بجوارها وحاول أن تخرجها ممَّا هي فيه، إن صدمة فقدان ابنتها حلا كانت شديدة الوقع عليها وهو ما أوصلها لتلك الحالة، حاول أن تساعدها رجاءً.

بدا التأثُّر على وجه يوسف وهو يقول:

– شفاكِ الله وعافاكِ، سأحرص على زيارتك بعد العملية للاطمئنان عليك وتهنئتك بنجاحها بإذن الله، وأعدك أنني سأظل إلى جوارها ولن أدخر جهدًا حتى تعود إلى سابق عهدها، وبعد أن تستعيدي عافيتك، سيكون من دواعي سروري أن ...

قطع حديثه دخول ريم ومعها صينية عليها فناجين القهوة، أنهى يوسف قهوته في صمت ثم استأذن في الانصراف تاركًا ريم مع والدتها.

***

عاد يوسف إلى منزله وجلس يتناول الطعام الذي ابتاعه في طريق عودته، تناول طعامه في تؤدةٍ وهو يفكر فيما حدث، تساءل... ماذا سيحدث لريم إذا ساءت الأمور ولم تكلل جراحة والدتها بالنجاح؟ ماذا ستكون ردة فعلها إذا ما فقدت والدتها وهي التي لم تتعافَ بعد من فقدان ابنتها؟

هل يستطيع حينها الحفاظ على الوعد الذي قطعه على نفسه لوالدتها؟ أطلق زفرةً حارةً وهزَّ رأسه كأنه ينفض عنها تلك الأفكار، أنهى طعامه ولم ينهض من مكانه، بل استرخى بجسده مسندًا رأسه إلى ظهر الكرسي وأغمض عينيه، لقد كانا يومين زاخرين بالأحداث، لقد تلقى العديد من الصدمات، لكن الصدمة التي قصمت ظهره هي كريم.

كان آخر ما يمكن أن يخطر بباله أن يسلك أخوه هذ الدَّرب، تساءل... كيف لم يلاحظ التغيرات التي طرأت عليه في زياراته الأخيرة! والأهم من ذلك، كيف طاوعه قلبه على ترك فرصة عمله التي يغبطه عليها أقرانه الذين يتمنى أيٌّ منهم نصف تلك الفرصة التي أتيحت له؟ كيف ترك ذلك وآثر الانضمام إلى أولئك المتطرفين! أين كان عقله عندما اتَّخذ ذلك القرار؟.

ذلك القرار الذي عصف بحياتهما، لم يكن كريم هو الوحيد الذي تأثر، بل هو كذلك؛ لقد فقد عمله، بالنسبة له إنها لم تكن وظيفة قط، لقد كان البرنامج هو شغفه وحلم حياته الذي سعى إليه طويلًا، والذي سلبه كريم هذا الحلم بتصرفات أقل ما توصف به بالحمقاء.

انتزعه من أفكاره رنين هاتفه المحمول، ما إن أجاب حتى أتاه صوت صديقه مخرج البرنامج، بعد تبادل بعض كلمات المجاملة، أخبره أنه لابد أن يعرج على

القناة لاستلام شيك بباقي مستحقاته، شكره يوسف وأخبره أنه لن يفعل ذلك، فهو يفضل أن يتم إرسال الشيك له أو إيداعه في حسابه على أن يأتي للقناة بنفسه.

أخبره أنه يتفهَّم موقفه تمامًا ومدى استيائه مما حدث، وله كل الحق في ذلك، كما ذَكَّرهُ أن العديد من القنوات الفضائية كانت ترغب في انضمامه إلى فريقها، ونصحه أن يتواصل مع إحداها وينظر ماذا سيحدث.

ما إن أنهى يوسف المكالمة حتى نهض من كرسيه، كان في حاجةٍ ماسةٍ ليسترخي قليلًا ليتمكن من التفكير بهدوء، أخذ حمامًا دافئًا ومن ثم أعد لنفسه كوبًا من الشاي كما يفضله، أمسك بهاتفه المحمول وأخذ يبحث في الأرقام المسجلة إلى أن وجد ضالته.

اتَّصل بمدير إحدى القنوات الفضائية، كانت إدارة تلك القناة على وجه الخصوص تتمسك بضمه إلى فريقها، وبذلت العديد من المحاولات في سبيل ذلك، إلا أن تمسكه هو بالقناة التي يعمل بها حال دون الاتفاق معه.

أتاه صوت محدثه عبر الهاتف، بدا صوته مرحبًا ممَّا شجَّع يوسف أن يسأله إن كانت القناة لا تزال مهتمةً بالتعاقد معه، مرَّت فترةٌ من الصمت إلى أن اعتذر له عن عدم وجود النية حاليًا للتعاقد معه وسوف يتَّصل به إذا ما جدَّ في الأمور جديد.

بدت علامات الدهشة على وجه يوسف وهو يُنهي المكالمة، مطَّ شفتيه وقام بالبحث في الأرقام مرة أخرى وقام بالاتصال بقناة ثانية، تكرَّر ما حدث معه مع مدير القناة السابقة، لم ييأس وحاول عدة مرات مع قنوات مختلفة، إلا أن النتيجة كانت واحدة.

نحَّى هاتفه جانبًا وبدا محبطًا وتساءل... هل أصبح مرفوضًا من الجميع؟ هل بلغهم جميعًا خبر تورط كريم فأصبحوا يخشون ضمَّه لقنواتهم بعدما كانوا يتهافتون عليه؟ لماذا يحدث له ذلك وهو الشخص الملتزم الذي لم يفعل ما يُغضب الله، إنه لم يفعل ما يستحق هذا، فلمَ هذا إذن؟

أطلق زفرةً حارةً وكأنما يفرغ معها ما يعتمل في صدره، استعاذ بالله من الشيطان ولام نفسه على ما جال بخاطره، إنه هو من يدعو الناس للصبر على البلاء فإذ به يفشل وبجدارة في هذا الاختبار.

***

ما إن وصلت رحاب بصحبة أبنائها إلى منزل والدتها حتى أمطرتهم الأخيرة بالقُبلات، انتحت بريم ورحاب جانبًا بعيدًا عن الأولاد، صمتت لبرهة من الوقت في محاولة منها لاختيار كلماتها قبل أن تخبرهم عن مرضها ورأي الطبيب بضرورة أخذ عينة من الورم على وجه السرعة لتحديد الخريطة العلاجية.

ما إن انتهت من سرد ما حدث معها حتى انهارا وألقيا بنفسيهما في أحضانها، دارت الأفكار في رأس ريم فها هو سيناريو ابنتها يتكرر ثانيةً، وتساءلت هل قُدِّرَ لها أن تفقد أمها أيضًا بنفس المرض اللعين؟ وما إن ورد على بالها هذا الخاطر حتى أجهشت بالبكاء مطلقةً لدموعها العنان.

أخذت نسرين تربِّت على ظهريهما وهي تطمئنهما أن كلَّ شيء سيكون على مايرام، طلبت منهما أن يتماسكا حتى لا يُثيرا الشكوك لدى الأولاد.

اقترحت رحاب أن يعرضوا الأشعات والتحاليل على طبيب آخر، عسى أن يكون طبيبها أخطأ في التشخيص، ابتسمت وهي تجيبها أنها بالفعل استشارت أكثر من طبيب، وأن الذي سيقوم بأخذ العينة هو أحد أكبر أطباء الأورام في مصر ومشهود له بالكفاءة، وطلبت منهم ألا يقلقوا بشأنها فما هي إلا عينة سيتم أخذها غدًا وأن ما كتبه الله سيكون.

مضى الوقت سريعًا وأصرَّت رحاب على المبيت مع والدتها وأختها، فما كان من زوجها إلا أن عرج عليها وقضى معهم بعض الوقت قبل أن يصطحب الأولاد إلى المنزل، فقد رأت رحاب أنه من الأفضل أن يمكثوا مع والدهم بدلًا من الذهاب معهم باكر إلى المستشفى.

***

توجه طارق مبكرًا إلى مقر النيابة وأمضى بعض الوقت في الاطلاع على محضر الأقوال قبل أن يُقابل وليد ويستمع منه إلى ما حدث بالتفصيل، لم يكد وليد ينتهي من سرد قصته حتى تم استدعاؤه للنيابة لاستكمال أقواله في القضية.

توجها سويًا برفقة أحد الجنود إلى النيابة العامة، حاول طارق تهدئته وأخبره أنه لن يألو جهدًا في الدفاع عنه، وقف وليد أمام وكيل النيابة الذي تصفَّح بعض الأوراق أمامه قبل أن يطيل النظر إلى وليد ويسأله:

- هل ما زلت مُصرًا على أقوالك؟

نظر وليد إلى طارق الذي جلس على المقعد أمامه وأومأ برأسه، فأجاب وليد:

- أنه يتمسك بما قاله سابقًا.

رسم وكيل النيابة ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يمسك ببعض الأوراق ويرفعها أمام وجهه ويردف قائلًا:

- هذا هو تقرير الطبيب الشرعي، الذي يؤكد فيه أن الطعنات التي وُجِهَت إلى القتيل كانت بيد شخص أعسر وعلى ما أذكر لقد قمت بالتوقيع أمامي على أقوالك بيدك اليمنى، هذا يعني أنه لم يكن أنت من قام بتوجيه تلك الطعنات وأنك تتستر على شخصٍ آخر، أليس كذلك؟

***

في غرفة بمستشفى الأورام، جلست ريم ورحاب في الغرفة بجوار سرير والدتهما التي قامت بتغيير ملابسها وارتدت الملابس المخصصة للعمليات، كانا يحاولان التماسك أمامها، إلا أنها كانت تعرفهما جيدًا وتعرف ما يجول بخاطر كلٍ منهما.

نظرت إليهما في حنان قبل أن تقول:

– لا تقلقا فما يريده الله سيكون وما هي إلا عملية أخذ العينة، وما أريده منكما هو الدعاء لي حتى يزيح الله عنَّا هذه الغُمة، سمعوا طرقات خفيفة على الباب ثم ما لبث أن دلف الدكتور منير وعلى وجهه ارتسمت ابتسامةٌ بسيطة لبثِّ الثقة في نفوسهم.

حيَّاهم جميعًا قبل أن يسأل نسرين إن كانت جاهزةً للعملية، بابتسامة غلَّفها الكثير من التوتر أومأت برأسها إيجابًا وهي تقول في خفوتٍ:

– وهل لدي خيار آخر؟

لم تغادر الابتسامة شفتيه وهو يقول:

– لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام، ساعتان على الأكثر وسنتوجه لغرفة العمليات، نحن في انتظار طبيب التخدير، هو صديقي ومن أكبر أطباء

التخدير في مصر، لقد رأيت أنه من الأفضل الاستعانه به اليوم، وسأرسل لكِ الآن إحدى الممرضات لسحب عينة لإجراء بعض التحاليل المطلوبة.

ما إن غادر الدكتور منير الغرفة حتى حضرت إحدى الممرضات وقامت بسحب عينةٍ من نسرين، ناولتهم بعض الأوراق وأخبرتهم أنها يجب أن تُوَقَع قبل إجراء العملية، كانت ريم تعرف تلك الأوراق جيدًا، إن المستشفى تُخلي مسؤوليتها حال ساءت الأمور.

سألت الممرضة التي أجابتها أنه إجراءٌ روتيني قبل الخضوع لأي عملية جراحية، وقَّعت ريم الأوراق وناولتها للممرضة التي شكرتها قبل أن تنصرف في عجالة.

***

ابتلع وليد ريقه وبدا التوتر على وجه طارق الذي قال:

- إن الاعتراف سيِّد الأدلة، ولقد اعترف موكلي بارتكابه تلك الجريمة، وليس معنى أن تقرير الطبيب الشرعي ذكر أن من قام بالطعن استخدم يده اليسرى، أن ذلك ينفي أن يكون وليد هو من فعلها بيسراه.

مطَّ وكيل النيابة شفتيه وهو يقول:

– بالتأكيد، لكن تقرير الطبيب الشرعي لم يذكر أن الشخص قد استخدم يسراه بل ذكر أن الذي قام بالطعن هو شخص أعسر أي أن قوة الطعنة واتجاهها يؤكد أن مرتكب الجريمة شخصٌ أعسر وهو ما يتنافى مع صفات المتهم.

لذا سؤالي لوليد، من الذي يحمي باعترافه هذا؟ هل يعرف أن من تستر على مجرم يوقع نفسه تحت طائلة القانون وسيعاقب لا محالة؟

نظر وكيل النيابة إلى وليد الذي بدا متوترًا للغاية وهو يشعر أن تلك النظرات تنفذ إلى داخله وتقرأ ما يجول في خاطره، بدا له أنهم سيعرفون أن والدته هي التي قتلت والده، وأنهم سيقبضون عليها وسيزجُّ به في السجن لتستره عليها.

خطر بباله أنه إذا ما حدث ذلك، فماذا سيكون مصير شقيقتيه؟ صمت قليلًا ثم حسم أمره، هزَّ رأسه في أسى ولسان حاله يقول "عذرًا يا أمي، حاولت ولكنني فشلت"، نظر لوكيل النيابة وتجمعت الدموع في مقلتيه وهو يقول: حسنًا سأ...

قاطعه طارق بنظرات محذرة ووجه حديثه لوكيل النيابة قائلًا:

– كما قُلت لك سابقًا، الاعتراف سيد الأدلة وليس هناك ما يمكن إضافته.

ابتسم وكيل النيابة وهو يقول:

– بلى هناك ما يمكن إضافته، لقد ورد أيضًا في تقرير الطبيب الشرعي أن سبب الوفاة هو هبوط حاد في الدورة الدموية نتيجة تعاطي جرعة زائدة من المواد المخدرة، وليست الطعنات هي سبب الوفاة.

ارتفع حاجبا طارق في دهشة، ووقف وليد لا يفهم شيئًا مما يدور، فنظر لطارق الذي قال:

– إن وفاة والدك لم يكن سببها الطعن بالسكين فقد كان متوفيًا بالفعل قبل تلك الطعنات، أي أنك بريء.

تهلل وجه وليد فرحًا وانهارت الدموع من عينيه، وأسرع يحتضن طارق الذي قام باحتضانه بدوره وهو يربِّت على كتفه في حنان، أشار له وكيل النيابة ليجلس على المقعد أمامه وأحضر له كوبًا من الماء، أفرغه وليد في جوفه دفعةً واحدةً، وهو ينظر إلى وكيل النيابة الذي قام بإنهاء التحقيق وأخلى سبيله.

ما إن خرج وليد من الغرفة حتى وجد والدته تجلس أرضًا بجوار الباب، وما إن رأته حتى نهضت وأخذته بين أحضانها، وهي تبكي وتخبره أنها ستعترف وليكن ما يكون، احتضنها وليد وهو يخبرها بما حدث.

لم تُصدق سعديَّة ما سمعته ونظرت إلى طارق الذي أكَّد لها ذلك، فانهمرت الدموع مختلطة بزغاريد الفرح التي دوَّت مجلجلةً في مبنى النيابة.

***

وصل طارق إلى المستشفى واتصل بريم التي أخبرته أن والدتها على وشك الدخول لغرفة العمليات، هرول مسرعًا إلى غرفتها، وما إن وصل حتى وجدها أمامه والممرضات ينقلنها إلى سرير العمليات، فأسرع إليها ووقف بجوارها محاولًا التقاط أنفاسه.

أمسك بيدها وهو يقول لها سأبقى هنا إلى أن نغادر سويًا، ابتسمت له وهي تطمئنه قائلة:

- كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله.

وأشارت لريم لتدنو منها، اقتربت ريم منها فطلبت منها أن تدعو لها، لاحظت نسرين الدهشة التي ارتسمت على وجه ابنتها فقالت:

- ريم... إنني أعرفك جيدًا، وأعرف أنك تملكين قلبًا ناصعًا، لربما ضللت طريقك قليلًا لكنني أثق أن قلبك سيعيدك دائمًا إلى الصواب، ادعِ لي من قلبك، توجهي لله بجوارحك واطلبي منه العون فهو لن يخذلك أبدًا.

سمعت ريم تلك الكلمات من أمها، وانسابت الدموع على وجنتيها وهي تقول بصوتٍ مختنقٍ، ولكنه خذلني يا أمي في ابنتي.

ابتسمت نسرين وحرَّكت رأسها يمنة ويسارًا وهي تقول:

– بالطبع لم يفعل، لقد كان اختبارًا لكِ، ليس المهم أن نفشل في اختبار، لكن المهم ألا نيأس ونتوقف عند ذلك، ادع لي يا ريم، ادع لي يا ابنتي.

طبعت ريم قبلةً حانيةً على جبين أمها وهي تعدها أنها ستفعل.

رافقوها جميعًا إلى أن وصلوا إلى غرفة العمليات التي دخلتها نسرين بينما انتظروا جميعهم خارجها، حضر الدكتور منير إليهم وهو يقول:

– أريد موافقتكم على ما سيحدث، سنأخذ عيِّنة من الورم ونرسلها للمعمل بالمستشفى لتحديد المرحلة التي وصل إليها المرض.

لن يستغرق التحليل وقتًا طويلًا، وستبقى السيدة نسرين في غرفة العمليات تحت التخدير لحين ظهور النتيجة، إذا ما كانت النتائج جيدة فسنقوم بعملية استئصال الورم فورًا، هل هناك أي اعتراض؟

سألته رحاب عن الخيار الآخر، فأجابها أن الخيار الثاني هو أن يقوم بأخذ العينة اليوم وإجراء الجراحة لاحقًا طبقًا لنتيجة التحليل، إلا أنه لا يُفضل هذا الخيار، فالوقت عاملٌ مهم في مثل هذا النوع من الأورام، علاوة على أنه لا يحبِّذ أن تتعرض السيدة نسرين للتخدير مرتين خلال فترة زمنية وجيزة، فاتفقوا جميعًا على الخيار الأول، لحظات وبدأ الفريق الطبي عمله.

***

أنهى يوسف حمَّامه الدافئ بعدما نهض من فراشه قرابة منتصف النهار، كان نومه مؤرقًا كعادته في الأيام الأخيرة، أمسك بهاتفه المحمول متصلًا بريم التي أبلغته أن والدتها حاليًا في غرفة العمليات، أخبرها أنه سيكون عندها في غضون بضع دقائق.

أنهى المكالمة وقبل أن يترك هاتفه من يده إذا برنين الهاتف يرتفع، ضغط زر إجابة الاتصال فأتاه صوت محدثه الذي عرَّفه بنفسه واستمع يوسف له في اهتمام، استغرقت المكالمة قرابة الربع ساعة وما إن انتهت حتى أسرع يوسف يرتدي ملابسه مسرعًا إلى المستشفى.

لم يمض وقت طويل حتى كان يوسف جالسًا بجوار ريم بعد أن حيَّا رحاب وطارق، أبلغته ريم بآخر التَّطورات وأنهم في انتظار نتيجة التحليل للعيِّنة التي أخذوها بالفعل منذ لحظات، كانت ريم في حالة يُرثى لها، لقد كانت ترتجف والدموع تنساب على خديها بين الفينة والأخرى ولم تكن شقيقتها بأفضل حالٍ منها.

نهض يوسف من مقعده واستأذن منها للذهاب للصلاة، فما كان منها إلا أن أمسكت بيده وبعينين مغرورقتين بالدموع طلبت منه أن يدعو لوالدتها، نظر إليها

يوسف وارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ بسيطةٌ وهو يطمئنها أن والدتها ستكون بخير، وأنها لا تحتاج أن توصيه بالدعاء لها، فهو سيفعل ذلك بالطبع.

انصرف يوسف للصلاة ورفعت ريم بصرها لأعلى وهي تحرك شفتيها دونما صوت، أغمضت عينيها ولم تتوقف دموعها وكذا شفتيها.

مضى الوقت سريعًا وعاد الدكتور منير ثانيةً بعدما غادر غرفة العمليات لحين ظهور نتيجة التحليل، ما إن رأوه حتى نهضوا في سرعة وسألوه متلهفين على النتيجة، أجابهم قائلًا:

- هناك أخبارٌ جيدة، فالمرض في المرحلة الثانية وهذا يعني أنه من المفضل إجراء الجراحة الآن قبل أن يصل للمرحلة التالية، قالها وتركهم ودَلف إلى حجرة العمليات.

مضى الوقت بطيئًا والكل مترقبٌ إلى أن أخبر يوسف ريم أنه يريد أن يتحدث إليها في أمرٍ هامٍ، نهضت معه وانتحى بها جانبًا بعيدًا عن رحاب وطارق، كانت الحالة النفسية لريم قد تحسنت قليلًا بعدما سمعت ما قاله الدكتور منير.

نظر يوسف في عينيها وهو يقول:

- ريم... أعلم أن الوقت ليس مناسبًا لكنني أردت أن أخبرك بنفسي بدلًا من أن تتفاجئي بذلك، لقد تعرضت للكثير خلال اليومين الماضيين.

حكى لها عن كريم واقتياده لأحد المقار الأمنية واستجوابه، أخبرها عن استغنائهم عنه بالقناة التي كان يعمل بها واستبداله بالشيخ أسامه كمقدم للبرنامج خاصته، كانت ريم تستمع له وعيناها تتسعان في ذهول، وهو يراقبها خشية ردة فعلها.

ما إن انتهى حتى تنهدت ريم وهي تقول:

– يوسف... إنني أعرفك جيدًا وربما أكثر مما تعرف أنت نفسك، إن موضوع كريم لا يؤثر بي، فهو في النهاية اختياره هو وعليه أن يتحمَّل نتيجة اختياراته ولست أنت.

لا يمكنك أن تلوم نفسك على ذلك، أما بالنسبة لبرنامجك، فتلك القناة هي التي خسرتك وليس العكس، ثق تمامًا أنك ستجد قناةً أفضل منها.

ابتسم يوسف وهو يقول:

– وهذا هو الموضوع الذي أريدك أن تكوني أول من يعلم به، لقد اتصلت بي اليوم إحدى القنوات العربية وقدمت لي عرضًا للانضمام إليهم، وأنهم سيقومون ببث تلك القناة من القاهرة، وتركوا لي حرية اختيار اسم البرنامج وكذا الموضوعات التي سيتم مناقشتها فيه.

اتسعت ابتسامة ريم وتمنت ليوسف التوفيق ببرنامجه الجديد، قطع حديثهما صوت رحاب وهي تنادي عليهما فقد خرج الدكتور منير من العمليات، أخبرهم أن العملية قد كلَّلت بالنجاح وأن السيدة نسرين ستمكث تحت الملاحظة لمدة يوم، يمنع خلاله الزيارات حتى تستقر حالتها.

لحظات وخرجت نسرين من غرفة العمليات ممددة على سريرها، اندفعوا تجاهها فأوقفهم طاقم التمريض وأخبرهم أنها تحت تأثير المخدر وأنه سيتم إفاقتها بغرفة الرعاية التي ستظل بها إلى الغد.

غادروا جميعًا فلم يكن هناك جدوى من بقائهم، على أن يحضروا جميعًا باكر في موعد الزيارة، وفي أثناء عودتها تلقَّت ريم اتصالًا من سعديَّة التي قصَّت عليها ما فعله طارق وخروج ابنها وليد من الحبس، سألتها عن والدتها فأخبرتها بما حدث، فأخبرتها سعديَّة أنها لابد من أن تأتي لزيارتها في المستشفى حالما تصبح الزيارة متاحة.

***

جلست سعديَّة بين ابنتيها وابنها وليد يحتفلون بعودة هذا الأخير، لم تكن لتحلم أن يُخلصها الله من زوجها، لكن الله قد استجاب لدعائها وليس هذا فحسب بل أنها لم تكن هي التي قتلته بل كانت وفاته نتيجة تعاطيه المواد المخدرة، حدَّثت نفسها أنها بالتأكيد سوء الخاتمة نتيجة ما اقترفه طوال حياته.

وبينما هم ذلك إذا بهم يسمعون طرقات على الباب، فتح وليد الباب ليجد صاحب الشقة الذي أخبره أنه يريد التحدث مع والدته، أتت سعديَّة مسرعةً لتجد الرجل يمهلهم حتى نهاية الأسبوع لمغادرة الشقة.

بدا الانزعاج على وجهها وهي تخبره أنها تدفع الإيجار بانتظام، وقد سددت إيجار هذا الشهر، فما هو السبب؟

أخرج الرجل من جيبه بعض الأوراق المالية وأعادها إليها قائلًا:

– ها هي نقودك، وسوف أمهلك لنهاية الأسبوع للمغادرة.

نظر إلى وليد وتابع قائلًا:

– نحن لا نرحب بقاتل والده في بيوتنا، وهذا قرار نهائي.

حركت سعديَّة رأسها يمنة ويسارًا وهي تقول:

– لا إنه لم يقتل والده، لقد توفي سيد نتيجة المخدرات وليس ابني من قتله، ولقد برأته النيابة.

مط شفتيه قائلًا:

– حتى وإن كان كذلك، هذا لا يخصنا، ما يهمنا حقًا هو إقدام الولد على طعن أبيه، حتى وإن كان جثةً هامدةً ولم تكن تلك الطعنات هي من قتلته.

حركت سبابتها أمام وجهها نافية ذلك وهي تقول في ذعر:

- لا إن إبني لم يفعل ذ...

قاطعها وليد ووجه حديثه للرجل:

- أمهلنا مهلة حتى نهاية الشهر لنجد شقة أخرى.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي الرجل وهو يقول متهكمًا:

- حتى لو أمهلتكم لنهاية العام، لن يؤجر لكم أحدٌ من أهل القرية، لقد قرر الجميع ذلك، أمامكم لنهاية الأسبوع، بعدها سيكون لي معكم تصرف آخر.

***

بعد أن استقرت حالة نسرين، تم نقلها من الرعاية إلى غرفة أخرى بالمستشفى لبضعة أيام للاطمئنان عليها، أخبرهم الدكتور منير أنها بمجرد خروجها من المستشفى واستعادة قواها ستخضع لجلسات العلاج الكيماوي مع المتابعة المستمرة لحين اختفاء أي آثار للمرض.

في غرفتها بالمستشفى تجمع حولها بناتها ريم ورحاب وأميرة التي ما إن سمعت بمرض والدتها حتى حجزت على أول رحلة طيران وما إن وصلت إلى القاهرة حتى استقلَّت سيارة من المطار إلى المستشفى مباشرة.

سمعوا طرقات خفيفة على باب الغرفة فتوجهت ريم صوب الباب وفتحته لتجد يوسف واقفًا، ما إن رأته نسرين حتى تهلل وجهها وأشارت له بالدخول.

ما إن دلف يوسف إلى الغرفة حتى حيَّا الجميع ووضع علبة من الشيكولاتة على المنضدة المجاورة لسرير نسرين، بينما ناول ريم باقةً من الزهور فوضعتها في مزهرية.

سألته نسرين عن أحواله فأخبرها أن اليوم ستكون الحلقة الأولى من برنامجه الجديد وستكون مذاعة على الهواء في تمام الساعة الثامنة مساءً، هنَّأته على ذلك وأخبرته أنها ستتابع البرنامج بكل تأكيد.

ابتسم يوسف والتفت إلى ريم وسألها: ماذا عنك، ألن تتابعي البرنامج؟

ابتسمت بدورها وقالت: سأفكر في ذلك.

***

جلس يوسف إلى مقعده خلف مكتب بإحدى الأستديوهات الذي امتلأ بالحاضرين، أشار مخرج البرنامج إلى يوسف الذي قال:

- مرحبًا بكم أعزائي المشاهدين خلف شاشات التلفاز بالمنزل وضيوفنا الكرام بالاستديو، في الحلقة الأولى من برنامج "ضع القلم".

"ضع القلم" هو اسم يلخص تجاربنا في الحياة، هو فكرة انتهاء الوقت قبل أن تفعل ما يجب فعله، فكم من مرةٍ خُضت اختبارًا وانتهى الوقت قبل أن تنهي إجابتك؟ أو أخطأت في حق إنسانٍ ورحل عن الدنيا وكنت تتمنى لو أتيح لك المزيد من الوقت لتعتذر له عمَّا بدر منك.

الكثير من المواقف حدثت للعديد منا، والأهم من ذلك كله هو اختبارنا في حياتنا هذه، فهل ينتهي وقتك ولم تفعل ما كنت ترجوه؟ فلنراجع أنفسنا جميعًا قبل أن ينادى علينا "ضع القلم".

ارتفع التصفيق داخل الاستوديو، رفعت إحدى الحاضرات يدها، أشار لها يوسف فنهضت من مقعدها، ما إن رآها يوسف حتى بدت الدهشة على ملامحه، ابتسمت وهي تقول:

– في البداية أود أن أشكرك على ما فعلته معي، لقد كان لك الفضل بعد الله في إنقاذي مما كنت فيه وإعادتي للطريق الصحيح.

لقد انجرفت سابقًا في تيار الإلحاد شأني كشأن الكثيرين، إلا أن الأستاذ يوسف لم ييأس وهو يجيب على تساؤلاتي الواحد تلو الآخر، وأنا أُعاند وأكابر وأُقنع نفسي أنني على صواب، إلى أن سألني ذات يوم سؤالًا زلزل كياني، كان بمثابة الصفعة التي أيقظتني من غفوتي، ماذا سأفعل إن متُّ ولم أجد الظلام الذي

أظن، بل وجدت أن هناك ملائكة وجنَّة ونار... وهناك إله؟ هذا السؤال لم أذق بسببه النوم يومين متتاليين، سألت نفسي، ماذا سأفعل حينها؟ لم تكن هناك إجابة.

كنت أعرف الإجابة لكنني كنت أنكرها، بدأت بالقراءة والبحث عن إجابات الأسئلة التي تعصف بعقلي، فإذا بالإجابات تتراص أمامي بصورة منطقية، كانت الإجابة لجميع التساؤلات هي، نعم هناك إله.

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتي يوسف وهو يقول:

- في الحقيقة أود أن أشكرك على كل ما قلتِ، والحمد لله الذي أعادك إلى طريقه، هلا تقدمي نفسك للحاضرين، إذا ما رغبت في ذلك.

ارتسمت ابتسامة واثقة على شفتيها وهي تقول:

- بالطبع أود ذلك، إن اسمي هو... داليا عبد المنعم.